وائل لاشين

# الرحلة صفر

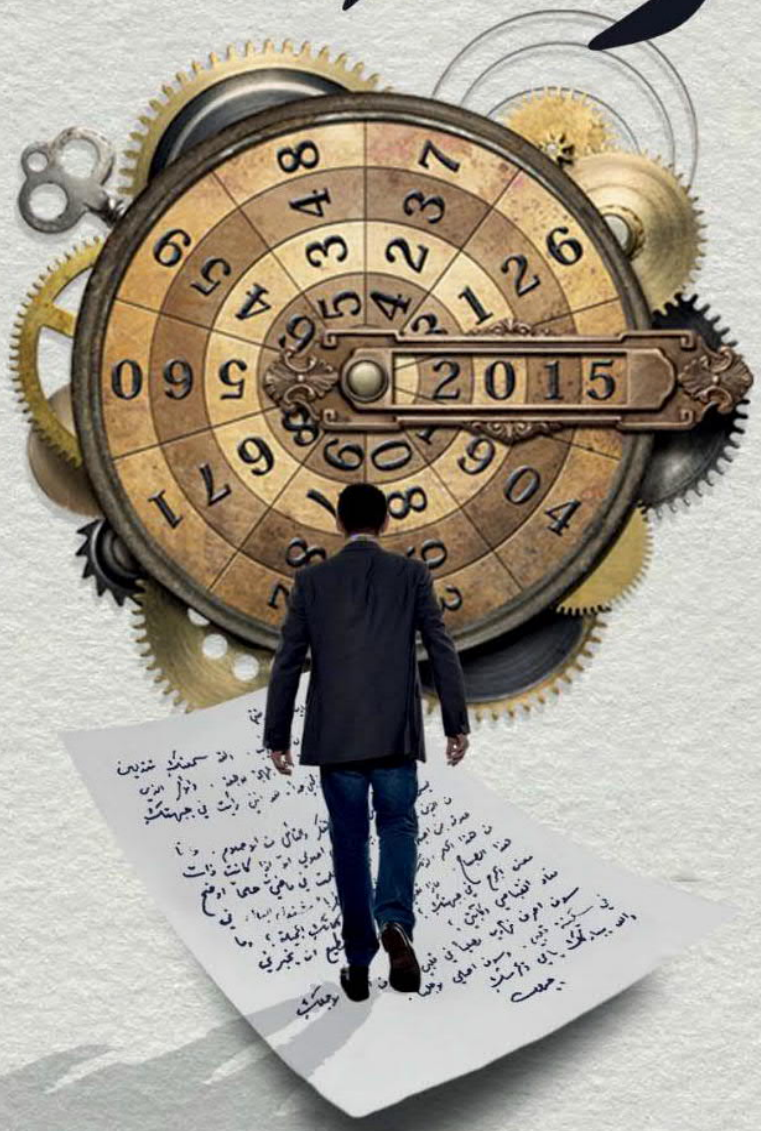


رواية

سادر للكتب

**أنْتَ حُرٌّ مِمّا أنْتَ عَنْهُ آيِسٌ. وَعَبْدٌ لِما أنْتَ لَهُ طامِعٌ**

«أحمد بن عطاء الله السكندري»

# (الفصل الأول)

# (1)

***نهار أحد الأيام..***

***الثالثة ظهرًا..***

***أعلى كوبري الساحل بمنطقة إمبابة..***

الهواء خانق بفعل درجة الحرارة المرتفعة في ذلك التوقيت، بالرغم من أنه موسم الربيع المعتدل، حركة المركبات المتتابعة، الكوبري خالٍ، سوى من رجل يستند إلى السور الحديدي، مدليًا سنارته في انتظار أول الغيث، بعد قرابة الساعة، يبدأ في التململ وهو يعدّل من وضع قبعته، التي فشلت في الدفاع عن رأسه أكثر من هذا أمام أشعة الشمس، يهز سنارته علَّها تستجيب، لكن دون جدوى، يشرع في سحب الخيط تمهيدًا للمغادرة، يلملم أشياءه في حقيبته القماشية، يمتطي عجلته ويبدأ في التحرك، بعد مترين، يصل لأذنه صريخُ عجلات إحدى المركبات، يقع على إثره في فزع، وتقفز قبعته عن رأسه، ينظر خلفه ليجد «ميكروباص»، يبدو أن سائقه فقدَ السيطرة على المقود، لتندفع المركبة فوق الرصيف، تخترق السور الحديدي، وتدوي كالقنبلة في المياه الراكدة.

وخلال ثوانٍ قليلة، صار الكوبري مكتظًا بالمارين، والمنكفئين على السور في ذهول، بين محوقل ومبسمل، صوبت «كاميرات» الهواتف نحو الماء المتموج من أثر السقوط، دون أي أثر لمسبب هذا التموج، بعد عشر دقائق، تتابعت سيارات الشرطة بأبواقها المُقبضة، في لحظات، تم تثبيت شريط أصفر عوضًا عن الجزء المكسور من السور الحديدي، «ممنوع الاقتراب»، فجأة، وكأنهم هبطوا من السماء، برزت قيادات أمنية على أعلى مستوى كما أوحت نجومهم الصفراء اللامعة، ومحققون شرعوا في تسجيل أقوال شهود العيان، بينما انهمك رجال المرور في محاولة لإذابة الجلطة المرورية، وإعادة انسيابها مرة أخرى، ليتحول الكوبري إلى خلية نحل لا تكف عن الطنين..

بعد اجتماع سريع مغلق داخل إحدى سيارات الشرطة، ظهر تضارب لأقوال بعض الشهود، هناك من ذكرَ أن «الميكروباص» كان كامل العدد، وتفاجأ سائقه بوجود «توكتوك»، فانحرف عن مساره في محاولة لتفاديه، ليحدث ما حدث، بينما أدلى آخرون بأنه كان خاليًا من البشر، سوى سائقه، الذي فقدَ السيطرة عن المقود، ولا علاقة «للتوكتوك» بالأمر، لكن أغرب الأقوال كانت تشير إلى نفي ما حدث كليًا، هم فقط سمعوا صوت ارتطام جسم صلب بالماء، ولما وصلوا لسور الكوبري لم يجدوا أي شيء.

أما عن أسفل الكوبري كانت هناك خلية أخرى من زوارق الإنقاذ، وشرطة المسطحات المائية، ودستة من أمهر رجال الضفادع البشرية، لإتمام عملية البحث عن الناجين، هذا إن وُجدَ، وبعد ما جاوز الثلاث ساعات، لم تسفر تلك الجهود عن شيء، تباينت المشاعر بين الحضور، عدا شعور الدهشة الذي ارتسم على قسمات الجميع.

تواترت عمليات البحث لثلاثة أيام متتالية، لكن على نطاق أوسع، ظنًّا بأن قوة سحب النهر، قد جرّفت المركبة بعيدًا عن موقع الحادث، لكن دون أي جدوى على الإطلاق، لا وجود «للميكروباص»، بل لم تتلقَّ أجهزة الشرطة أي بلاغات تشير لفقدان أو غياب أحد.

وفي النهاية تم حفظ التحقيق..

# (2)

**طارق..**

**10 مايو 2021**

**التاسعة مساءً..**

تلك الليلة تحديدًا وأنا أُحكم غلق حقيبة حاسوبي المحمول، وفي طريقي لمغادرة الشركة، بعد يوم عمل شاق وطويل، يشبه أيامي جميعها، استوقفتني رنة هاتفي، طالعتُه لأجد رسالة من (رأفت) يطالبني بالحضور إلى مكتبه، أخرجتُ علبة سجائري ثم أعدتها لجيبي مرة أخرى، مكتفيًا بما دخنته اليوم، وبملل توجهت إلى مكتبه، لأجده جالسًا عاقدًا كفيه في صمت، بينما تجلس أمامه امرأة ثلاثينية بملامح رقيقة يكسوها القلق، بدا وجهها مألوفًا بالنسبة لي، ما إن رأتني، حتى لاحت ابتسامة خفيفة، وبعد تبادُل التحية، سألتني:

- إحنا اتقابلنا قبل كده!

- وارد يا افندم، عمومًا أنا أتشرف بمعرفة حضرتك!

هنا، أمسك رأفت بدفة الحديث، هي وكما قدَّمها لي، المديرة التنفيذية لشركة «جلوبال ماستر هاند»، شركة

لتوظيف العمالة بالخارج ولديها عدة فروع حول العالم، إحداها بمصر التي تعمل بها (هند) مع عمّها السيد (إيهاب الصيرفي)، رجل أعمال مشهور، وعضو منتدب بالشركة، وصديق شخصي لرأفت، وكما أوضح، جاءت لاستشارة الأخير في مشكلة تخص شركتها، على اعتبار كونه رجل أمن سابق، تلك الشركة التي استيقظ العاملون بها صباح أحد الأيام، على رسالة تهديد لمجهول، مفادها أنه عزم نيته على الانتحار، دون ذِكر موعد محدد، أو حتى مبررات لقراره هذا، مدت لي يدها لتناولني هاتفها، وهي تتأمل وَقْع الأمر عليَّ، صورة لورقة بيضاء كُتبت على الكمبيوتر:

«ما عدت أملك من الشجاعة، سوى ما يعينني على الرحيل، وترك آثار دمائي فوق أناملكم، على أمل أن تعترفوا يومًا بذنبكم نحوي، فاليوم فقط، أدركت معنى أني «حُرٌّ مما أنا عنه آيس، وعبد لما أنا له طامع»».

أصابتني الرسالة بالوجوم لبرهة، تبدو مألوفة، لا أدري سر الأُلفة التي غمرتني ليلتها، حاولت تذكُّر أين قرأتها من قبل، لكن لم تسعفني ذاكرتي. استشف رأفت حيرتي، التي ظنها تساؤلًا عن علاقتي بالأمر، ليجيبني موجهًا حديثه إليها، واصفًا إياي بأني لست فقط زميلَ عملٍ، فبجانب كوني كبير مبرمجي الشركة، إلا أنه يعتبرني صديقًا شخصيًّا له، وملجأه

دومًا ومستشاره في أغلب أموره، وأردف مؤكدًا على ثقته في أنني سأفيدها في تلك المشكلة.

شعرت بالمبالغة في حديثه، لكن كلامه لم يُجب على تساؤلي بعد، ما علاقتي بالأمر!

ابتسم موجهًا حديثه لي تلك المرة:

- طارق، أنا عارف إن الموضوع غريب، أنا نفسي مش قادر أستوعبه، لكن كلي ثقة في إنك هتقدر تساعدنا، ومتفهم إن المشكلة بعيدة عن تخصصك، لكن أمر إيهاب بيه يهمني، أكيد إنت مدرك، لو صاحب الرسالة دي نفّذ تهديده، حجم الكارثة اللي ممكن تأثر على سمعة شركة كبيرة، زي جلوبال ماستر هاند، اللي مهمتها الأساسية قائمة على توظيف الشباب!

سكت برهة ليراقب وَقْع الأمر عليّ ثم استطرد:

- وطبعًا صعب نلجأ للشرطة في مشكلة زي دي، عشان إنت عارف إن مفيش حاجة بتستخبى.

إذًا إيهاب العضو المنتدب بتلك الشركة، استعان بصديقه رأفت، الذي تراءى له، أنه الملجأ الأنسب نظرًا لكونه لواء شرطة متقاعدًا، ومؤكد لا زال يملك بقايا حس أمني، وبدوره لجأ الأخير إليّ، حيث تجلى له أنني الأنسب للقيام بدور شيرلوك هولمز، للتوصل لهوية صاحب الرسالة وإثنائه عن

الانتحار.

هززت رأسي مؤيدًا كلامه الأخير، في محاولة لإظهار اهتمام بدا لهما مزيفًا، وتلك هي الحقيقة على أي حال، لكن في النهاية انتهى اللقاء بتبادل أرقام الهواتف، على وعد باستكمال الحديث مرة أخرى.

نهضت هند وهي تشكرنا، صافحتني بعيون فاقدة الأمل، ثم انصرفت، وما إن أغلقَتْ باب المكتب، حتى هبّ رأفت من كرسيه، استند على حافة المكتب الخشبي بمحاذاة كتفي الأيمن، أخرج علبة السجائر، التقط واحدة وناولني إياها، مدَّ يده بقداحته ثم دنى بها، ليشعل سيجارتي وهو يسأل:

- إيه رأيك في الحدوتة دي؟

- رأيي أنك ورطتني.

استدار ليعود ويجلس على كرسيه مرة أخرى:

- عارف.

- عارف! طب ليه؟

- إيهاب خدمني قبل كده ومقدرتش أرفض له طلب، وخصوصًا إني حسيت إنه فعلًا في ورطة، اعتبرها رد جميل.

- وأنا مالي يا رأفت! إيه علاقتي بالحوار ده؟ مش هتبطل

ترمي عليّ شغل فوق شغلي!

نفث دخان سيجارته:

- طارق إنت مش غريب! أنا شاري أسهم في جلوبال ماستر هاند بمبلغ مش قليل، ولولا إني مسافر بعد بكرة مؤتمر ألمانيا، كنت اتوليت الموضوع بنفسي.

أطرقت رأسي وقد بدت الأمور أكثر وضوحًا.

# (3)

***طارق..***

***منتصف الليل..***

***حي العباسية..***

عند عودتي.. وأمام باب المنزل، أحرص على كتم رنة المفتاح، أتسلل على أطراف أصابعي هربًا من لومها المعتاد على عودتي متأخرًا، فأجدها تجلس متدثرة بشالها رغم حرارة الجو، تستمع هائمة لصوت عبد المطلب، وهو يغني «شُفت حبيبي وفرحت معاه.. ده الوصل جميل حلو يا محلاه».

تتمتم وهي تهز رأسها: «مفيش فايدة فيك»، أسألها عن حالها، فتسألني وهي تهم بالوقوف مستندة على عصاها:

- كلت؟

- كلت ساندوتش في الشغل.

تتجه إلى المطبخ وهي تقول:

- يعني ماكلتش، على العموم أنا عاملالك..

- مش هقدر يابطوط، يادوب أدخل أنام.

برفضي أمام إلحاحها الذي لا يتوقف، وبمقاطعتي - المتكررة لحديثها- التي تكرهها، تهجرني إلى غرفتها لتنام، بين قلقها الدائم؛ الذي فشلت في تجاوزه، وخوفها الهستيري عليَّ - خاصة بعد وفاة والداي- ، أشفق على جدتي ورفيقة عمري، أنا بالنسبة إليها لا زلت طفلًا، طفل لا يكبر أبدًا، طفل غير مسموح له بالتأخر في العودة للمنزل أيًّا كان المبرر، وإلا فهو مؤكد في خطر داهم، يستدعي الفزع، وأمام إخفاق جميع محاولاتي لطمئنتها، قررت منذ زمن، التوقف عن التذمر وتقبُّل الأمر، أستقبل كلماتها كالدواء المر، الذي لا مناص منه في صبر وهدوء، تسللت لأدخل خلفها، فأجدها تجلس على طرف السرير، تمسح بيديها على الفراش، قبل أن تلقي بجسدها الثقيل فوقه، ألتقط جهاز السكر من درج الكومودينو، وهي تناولني يدها في استسلام، شكة سريعة، أمسح بقعة الدم بالشريط المتصل بالجهاز، ثوانٍ قبل أن تسجل شاشته قياسًا مرتفعًا..

أداعبها قائلًا:

- ماينفعش كده، إنتي النهارده مسكرة بزيادة يا بطوط..

تضحك رغمًا عن غضبها المصطنع، أقبِّل جبينها، أحكم وضع الغطاء فوق جسدها، ثم أطفئ الأباجورة وأغادر.

# (4)

# طارق

***الواحدة صباحًا..***

أجلس بالصالة متململًا وأنا أدير التلفزيون بحثًا عن التسلية، كطقس معتاد قبل النوم، أتنقل بين القنوات بحثًا عن ضالتي، حتى أستقر على إحداها، فيلم وثائقي عن نجيب محفوظ، غريب أمر هذا الرجل، أتابع بشغف غير متوقع، قصة حياة هذا النابغة، يستوقفني الجزء الخاص بمحاولة اغتياله، فتشتعل خلايا مخي المرهقة، أغلق التلفاز وأنا أفكر: «ولمَ لا! فلأخوض مغامرة جديدة مع هذا العبقري، وربما أنجح في إنقاذه من محاولة الطعن».

وبعد حمام دافئ يغادرني التعب وتنشط حواسي جميعها، أُعد كوبًا من قهوتي الداكنة، ثم أدخل إلى غرفتي وأحكم غلق البابن قبل أن أجلس أمام الحاسوب، أنهض مرة أخرى للتأكد من غلق الباب، ثم أشرع في خوض رحلة جديدة، أرتشف السائل الداكن على مهل، مصحوب بسيجارة وأطلق العنان لزفرة دخان، ويحلق معه خيالي لبعيد، أنظر لتمثال الحصان المعدني الذهبي فوق المكتب، أحتضنه بيسراي، وبيدي الأخرى، أنقر على الأيقونة لتظهر واجهة البرنامج

برسالة ترحيب لثوانٍ، قبل أن يسألني عن كلمة السر، أكتبها، يطالبني بارتداء النظارة، أترك ما بيدي وأثبت فوق رأسي نظارة ضخمة، تشبه تلك المُستخدَمة في ألعاب الواقع الافتراضي، مُلحق بها من الداخل سماعة محيطية، تتجسد شاشة الحاسوب من حولي لأصبح جزءًا منها، ألتفت عن يميني، فأرى مجلدات، وعن يساري، فأرى أخرى وقد تجسَّمت على هيئة مكعبات صفراء ضخمة، تبدو ملموسة، أتجول بينها وكأني صرت واحدًا منها، وبطريقة آلية يُجري التطبيق عملية مسح لقرنية العين، وقياس المعدلات الحيوية لتأكيد الهوية، يختفي عالم المجلدات من حولي، يُعرض أمامي خيارين، عشوائي أم محدد، أفكر لثوانٍ، أمط شفتي، أنقر فوق محدد، تظهر لي رسالة، اختر الشخصية والتاريخ المراد الانتقال إليه، أهمس (نجيب محفوظ)، (14 أكتوبر 1994).

أرح رأسي للخلف، أغوص أكثر في المقعد الوثير، أسترخي مغمضًا عيني لعدة ثوانٍ..

جاري التحميل..ثم..تظلم الدنيا من حولي..

# (5)

***أكتوبر عام 1994***

***رحلة سيد الحرافيش..***

***حي العجوزة***

أمام منزله أراقب في انتظار خروج الرجل، حتى يظهر أخيرًا ببدلته السماوي المفضلة، وقميصه الأبيض المُزرر حتى عنقه، ونظارته السوداء التي لا تفارق وجهه ليل نهار، يخطو كعادته بخطوات متأنية وقورة مغادرًا البناية، يعرج على الكشك القريب من منزله ليلقي السلام على صاحبه عم (عاشور)، يبادله الأخير التحية، وقد تهللت أساريره فرحًا بقدومه، يطأطأ محفوظ رأسه وهو يفرك ذقنه، يمسح بعينيه عناوين الصحف المسطحة أرضًا فوق الحصير، يجمع ما يجذبه منها، ثم يدبّ يده في جيبه ليخرج بضع جنيهات يناولها لعاشور، يدفع الأخير النقود بكفه رافضًا:

- خلي يا أستاذنا.

بنفاد صبر يلقي بالجنيهات أمامه ويستدير مُبتعدًا وهو ينهره:

- ماتتعبنيش يا راجل أنت.

- اللي تشوفه يا أديبنا.

يقولها عاشور ضاحكًا، ثم يقطب حاجبيه فجأة صائحًا:

- صحيح الكلام اللي مكتوب في الجرايد ده يا أستاذ نجيب!

يتوقف ويلتفت إليه مجيبًا:

- المهم اللي مكتوبلنا عند ربنا يا عاشور.

ثم يتأبط صحفه ويترك الرجل الذي تعالى صوته يلاحقه بالدعاء:

- ربنا يحفظك ويخليك لينا يا أستاذنا.

يتجه الأستاذ ليركب السيارة الفيات، لصاحبها الطبيب البيطري الرابض أمام المقود، الذي عاجله بنفاد صبر:

- يلا يا أستاذ هنتأخر عن الندوة.

يجلس بجواره وبدافع الحميمية يشير له بالتحرك:

- اتفضل يا سيدي، قال يعني هنتأخر على الديوان.

يدير المحرك، وقبل أن يتحرك يستوقفه رجلان يمتطيان موتسيكل، يترجل أحدهما ملوحًا بيديه لمحفوظ وهو يبتسم:

- أستاذ محفوظ نجيب.

يبادله التحية بابتسامته العريضة الودودة، ظنًا منه أنه أحد المعجبين البسطاء أخطأ في نطق اسمه.

أدركت أن هذا وقت تحركي، اقتربت من المشهد، أرى الرجل يدنو من السيارة وهو يتحسس جيبه، يمد محفوظ يده اليمنى ليصافحه، فيتجاهلها الرجل وهو يخرج أداة حادة تشبه المطواة، يرفعها ليطعنه بصدره، وقبل أن يصل نصلها لهدفه، أستوقفه بلكمة من الخلف، يرتبك المعتدي، وتخطئ مطواته هدفها، فتستقر بالنهاية برقبة محفوظ ويلتفت لمواجهتي، يدفعني لأسقط أرضًا ويقفز خلف قائد الدراجة البخارية ويفرا هربًا، حاولت اللحاق به، لكن كان فرارهما أسرع، ترجل الطبيب من السيارة صارخًا في فزع، لا يدري ماذا يفعل، احتشد المارون حول السيارة محوقلين في ذهول، اقترب أحدهم لنزع المطواة من رقبة محفوظ، إلا أن الطبيب دفعه بعيدًا، والتف حول السيارة، وجلس أمام المقود مرة أخرى، لينطلق نحو مستشفى الشرطة التي تبعد دقائق عن موقع الحادث.

أبتعد وسط نظرات الناس المثنية على شجاعتي، وأنا أفكر، ماذا لو لم أكن متواجدًا في الوقت المناسب..

# الفصل الثاني
# (1)

أنا (طارق جبريل)، أو لو شئنا الدقة، أنا الساذج الموهوم، الذي أعيش حياة رتيبة، وروتينا قاتلًا، وفراغًا بلا استثمار، أعمل مبرمجًا بشركة متعددة الجنسيات متخصصة في تطوير الذكاء الاصطناعي، توصلت لتطبيق يمكنني من خلاله الانتقال لعوالم افتراضية أخرى، تطبيق أسميته «الطائف»، استغرق تطويره قرابة الثلاث سنوات، يبدّل ويضيف، بل ويمكنه حذف ما أشاء من أحداث، تقنية حاسوبية معقدة، تمكنني من خلق أحداث وعوالم غير موجودة، بدأ الأمر للتسلية فقط لا غير، حتى نجحت في توظيفه لتغيير وإضافة تفاصيل لأحداث وقعت بالفعل، حدث الأمر مصادفة، حين استيقظت يومًا لأكتشف أن أحداث إحدى رحلاتي قد تغيرت بالفعل، «الكمبيوتر» مؤمَّن تمامًا، بأحدث برامج مكافحة الفيروسات والتجسس والقرصنة، برامج استهلكت من ثروتي - التي جمعتها من عملي- مبالغ طائلة نظرًا لشرائها عبر مواقع متخصصة عالمية غير شرعية على شبكة «الإنترنت»، بالطبع سمعت عن ال «deep web»، ذلك الموقع الذي يحتوي على أكثر من 90% من مساحة «الإنترنت» حول العالم، وعلى عكس الفكرة الشائعة عنه،

بأنه عالم يمارس به الأعمال الإجرامية بلا قيود، فهناك قد تجد عليه أيضًا مواقع تخدم أهداف نبيلة، تعليم، تدريب، تطوير، برمجة.

سمي ما أفعله بما شئت، لكني أؤمن أنه مشروع، طالما لايؤذي أحدًا.

نعود لأمر التطبيق، عملية الولوج إليه، في حد ذاتها تعمل وفقًا لسيمترية معقدة للغاية، تستلزم عدة خطوات، للتأكد من صحة كون المستخدم هو المالك الفعلي للحاسوب من عدمه، بل وإيقاف عمل الجهاز فور اكتشاف مستشعراته الضوئية والبصرية، وجود شخص آخر في محيط محدد مداه مسبقًا، من قِبَل مالكه، وأيضًا التعامل بذكاء اصطناعي فائق الدقة، مع حالات إجبار مالكه الأصلي على الولوج، تحت أي شكل من أشكال التهديد، يحدث ذلك، من خلال ملاحظة أي اختلاف، في قياسات الصوت وقسمات الوجه الطبيعية المعتادة، بخلاف مستشعرات أخرى مبطنة داخل النظارة، تقوم بمهمة شبيهة بوظيفة جهاز رسم القلب لكن بطريقة أكثر تطورًا، لا يستغرق الأمر سوى ثوانٍ معدودة، ففي حالة التقاط أي خللٍ ما، يخص مالك التطبيق، يُدفع الحاسوب بنسخة بديلة من «الطائف»، نسخة بدائية تمامًا، تُظهر التطبيق كلعبة ساذجة من ألعاب الواقع الافتراضي، فلا يجد

المُحتال أي جدوى منه، طبعًا تخيّل ما إذا وقعت تلك التقنية تحت يد أحد الأشرار، هو ما دفعني للتركيز على تزويده بكل تلك الوسائل المعقدة لتأمينه.

أما عن آلية عمل «الطائف»، فليس على المُستخدم سوى اختيار الشخصية المراد خوض الرحلة معها، وتحديد الزمن والتوقيت أيضًا، ليقوم البرنامج بعملية تسمى «المواءمة»، للوقوف على نسبة، تحدد مدى قابلية خوض الرحلة من عدمها، مواءمة تقوم باستخلاص كل المدخلات المرتبطة بالشخصية، من خلال محركات البحث الشرعية وغير الشرعية، معلومات عامة، تفاصيل شخصية، مقاطع مصورة، مواقع التواصل الخاصة له إن وجدت، وكلما كانت نسبة المواءمة مرتفعة، كلما كانت الرحلة أكثر نجاحًا.

هناك عدة مشكلات طارئة الحدوث، لا يمكنك تقدير حجم عواقبها سوى بالتجريب، وأيضًا من المجازفة ترك الأمر للظروف، فمثلًا قبل السفر أتعمد ترك بطاقتي، أو أي أوراق تدل على بياناتي الشخصية، تحسبًا لأي أمر قد يقحمني في ورطة أنا في غنى عنها، وكذلك لم أغفل احتمالية حدوث انقطاع للتيار الكهربائي خلال الرحلة، فليس لدي أي تصور مؤكد حول مآل ذلك، لذا كان من الضروري توفير مولّد كهربائي صغير الحجم لمد الحاسوب بالطاقة اللازمة

استعدادًا لهذا الأمر، فلربما ينتهي بي الحال في رحلة من الرحلات حبيسًا أحد الأزمنة.

بتلك الآلية المعقدة، أنقذت أشخاصًا من نهايات كارثية، وغيرت مجرى العديد من الوقائع، أبسطها مثلًا؛ رحلة «الميكروباص» الناجحة، التي أعَدتُ فيها مقوده المختل إلى مساره الطبيعي، حيث كاد أن يودي بحياة ركابه للأبد، وبرغم أنه لم تكن كل رحلاتي ناجحة بالنهايات التي كنت أطمح إليها؛ خاصة أن تقنية البرنامج لا تسمح بتكرار ذات الرحلة مرتين، إلا أنه يكفيني أن أكون شاهد إثبات على نهايات غامضة مُبهمة، قيَّدها التاريخ ضد مجهول، وحتى لو لم أقوَ يومًا على إزالة غبار الغموض عن تلك الأحداث.

ومن يدري!

ربما نجحت يومًا ما، في إقناع قابيل بالعدول عن جرمه ، وقطع دابر سلسال دم سيمتد لنهاية هذا الكون، أو على الأقل مد يد العون لدفن أخيه دون انتظار بيان مُعلِّم من غُراب عابر، على كل حال يبقى الأمر في النهاية بمثابة نعمة أنعم عليَّ بها القدير، ولم أبُح بسرها لأحد، خوفًا من فقدها.

ولمَ افعل؟...

سعيًا وراء المال!

بالطبع لا، فبخلاف راتبي الذي يحوي أربعة أصفار، ورثت عن والديَّ ثروة لا بأس بها على الإطلاق..

فهل سعيدًا وراء الشهرة!

الشهرة لا تُعني شخصًا مثلي، فضلًا على أنها وبال لا يفارق صاحبها، خاصة وأن الأمر متعلق باكتشاف كهذا، فمؤكد اختراع كهذا، بمثابة مطمع للعديد، لاستخدامه أسوأ استخدام، وحتى لو أطلعتُ أحدهم على سري هذا، فلن يصدقني، سيضحك ضاربًا كفًا بكف، ويغادر متهمني بتعاطي المخدرات، أو وصمي بالجنون على أقل تقدير، وللحق أعذره، وكيف يصدقني وأنا ذاتي أحيانًا لا أصدق، تخيل أن يأتيك شخصٌ اليوم، ليخبرك أن له الفضل في إنقاذ نجيب محفوظ، بعد أن سافر عبر الزمن يوم محاولة اغتياله!

# (2)

***في صباح اليوم التالي..***

بينما كنت في سيارتي، متخذًا طريقي إلى عملي، تلقيت اتصالًا من رأفت، يطالبني - برجاء شخصي- بالاهتمام بمشكلة شركة «جلوبال ماستر هاند»، وعدته أن أفعل لكن في وقت لاحق، إلا أنه لحقَ بمكالمته اتصال من رقم غير مسجل، لم أجبه، حتى قرأت الرسالة التي تبعته، يقول صاحبها إن المكالمة السابقة تخص هند منصور، وترجوني بمعاودة الاتصال بها في الوقت الذي يُناسبني، لم أجد مفرًا من التجاهل هذه المرة، فاتصلت بها لأجدها تسألني إن كان لدي من الوقت ما يُتيح لها مقابلتي في شركتها لمناقشة الأمر، طلبت منها إرسال موقع الشركة، وبالفعل أرسلته لي، فوجدته يقودني إلى التجمع الخامس، تحركت وأنا أسمع عمرو دياب يغني «عارف إنت أكتر حاجة تفرح الواحد هي إيه!.. إن اللي ياما حلمت بيه تلاقيه حبيبك».

يااااااه، أغنية تثير شجني، تعود بي لأكثر من عشرين عامًا، لأول يوم ألقاها فيه، أمام مدرج الكلية، أقف وحيدًا لا أدري ما عليّ فعله، رهبة اليوم الأول بالجامعة، وحيدًا في انتظار بدء المحاضرة، أردد كي لا أنسى «اسمها محاضرة مش حصة، دكتور مش مستر».. قطعَ تفكيري صوتها الذي لم

أنسَه يومًا، وكأنه ماءٌ أنبت زهرة بقلبي، تسألني في خجل عن مدرج الصف الأول الجامعي، أشرت ناحية بابه معقبًا:

- بس المستر لسة ماجاش.

تضحك لتنبت زهور أخرى في حديقتي، أسألها عن اسمها لتجيب:

- رقية.. رقية شاكر.

ينتابني شعور جديد لا أعرف مسمى له، تقرأ ارتباكي فتبتسم، أبادلها الابتسام وأبدأ معها من ذلك اليوم، عمرًا آخر، عنوانه عينيها، تذكرت تلك اللحظة، وتذكرت أيضًا كيف كان حجم الحلم، الذي بنيناه لينهار أمام كلمة رفض من والدها، الذي كان على حد قوله «عايز يؤمّن مستقبل بنته».

ابنته، التي تركها تواجه الحياة القاسية وحدها أيام دراستها بالجامعة، واصطحب أمها وسافر للخارج بالحجة ذاتها، وحيدة في الوقت الذي كانت في أشد الحاجة لسند، وحيدة أمام الحياة والقلق والخوف من المجهول، كم جريمة ارتكبها هذا الساذج خلف ستار تأمين المستقبل، «تعالَ وانظر إلى ما آل إليه تصرفك!»

عُدت لواقعي وأنا أتساءل، كيف لأغنية أن تعيد سنوات كاملة ولّت، لتمر أمام عيني في ومضات، كنت أظن أني قد

نسيتها، لكن يبدو أني لم أنسها لحظة، ويبدو أنه لن يحدث يومًا.

منذ فراقها لم أكره أملًا قط، بقدر ما كرهت أملي - الأقرب للمستحيل - في عودتها مرة أخرى، أطوي أيامي بين العمل ورحلاتي، سعيًا خلف النسيان، لكن دون جدوى، وكأن كل قدم أقطعها هربًا منها يقربني إليها ميلًا، داء أسأل الله ألا يشفيني منه أبدًا، رحلَتْ وقطعَتْ كل سبل التواصل بيننا، لم يتبقَّ من أثرها سوى حسابها الشخصي على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، عثرت عليه صدفة يومًا ما، أعتدت أن أراقبه يوميًا دون إرادة مني، أكتفي منه بالقليل؛ صورة جديدة، منشور يعكس عنها حالتها، أو حتى تعليق لها يفسره قلبي كيفما يتمنى هواه، فيثلج صدري..

منذ عدة أعوام، حين هاجمتني إحدى نوبات الحنين؛ التي لم أنجُ منها تلك المرة، حاولتُ التواصل معها، أرسلتُ إليها رسالة شوق مختصرة عبر «الفيسبوك»، وبعد فترة، تلقيت ردًا كان مزيجًا من الرغبة والرفض، الرغبة في إرواء ظمأ اشتياق فشلتْ في مداراته، ورفض لضعف قد يفتح أبوابًا، من الأصلح لها أن تظل مغلقة، طالبتني بقطع وعد بعدم التواصل معها مرة أخرى، أو حتى مراقبتها، كنت أرغب في إيضاح أن جلّ ما أريده هو فقط الاطمئنان عليها، وإن كان

ذلك أقل مما تمناه قلبي، لكن كانت ترى أن مجرد الحديث بيننا لا فائدة منه، خاتمة القول «لو لسه ليا مَعزّة عندك فعلًا، خاف عليَّ، الوضع دلوقتي متغير، أنا متجوزة وعندي بيت وولاد ومسؤوليات.. طارق أرجوك بلاش، لا في إيدك ولا في إيدي حاجة نعملها ترجع اللي كان».

هكذا أنهت المحادثة.. لأبدأ بعدها عمرًا آخر من البؤس.

تلك الغبية لا تدري حقًا كم أعشقها!

# (3)

يشير البرنامج إلى أنه لم يتبقَّ على وجهتي سوى ثلاثمائة مترًا فقط، وعند الوصول، وأمام شركة «جلوبال ماستر هاند» أتوقف لأشاهد هيكل الشركة من الخارج، البناية أكبر مما تخيلت، تحيطها ساحة واسعة جراج للسيارات، يقف أحد العمال فوق رافعة لتلميع واجهتها الزجاجية الضخمة، الذي تنعكس عليها أشعة الشمس، صانعة هالة ضوء مُبهرة تعمي الأبصار، رجال أمن بزيهم المميز، ينتشرون في كل مكان، يستوقفني أحدهم ليسألني عن وجهتي، أخبره باسمي.

- أهلًا وسهلًا، داخل لمين يا افندم؟

- هند منصور.

يُجري إشارة سريعة بواسطة اللاسلكي، ثم يتبعها بابتسامة مرحبة وهو يفسح لي الطريق، أتقدم ويلحق بي لتوصيلي، أرى بهو ضخم مكيف بالكامل، أرضيته من البورسلين، ترن فوقه كعوب الأحذية في جميع الاتجاهات، خطوط إضاءة صممت في تناغم مريح للعين، رواق زجاجي طويل، غرف عن اليمين واليسار، لاحظت أن «كاميرات» المراقبة تنتشر في أرجاء المكان، من لحظة عبوري باب ساحة السيارات، وحتى وصلت أمام باب مكتب كُتب بالإنجليزية على لافتته،

(هند منصور المدير التنفيذي)، استقبلتنا فتاة جميلة ترتدي الزي الموحَّد للشركة، شكرت رجل الأمن ثم تقدمت أمامي وهي تدعوني للحاق بها، توقفت أمام باب آخر داخلي، نقرته قبل أن تفتحه، وبطريقة آلية، تنحت جانبًا لتفسح لي الطريق، ما إن دخلت حتى همّت هند من مقعدها، أقبلت بابتسامة مرحبة ووقع نقر حذائها يصم الآذان، دعتني للجلوس على أريكة وثيرة بعيدًا عن جلسة المكتب الرسمية، رحت أتأمل المكان، مكتب أنيق بمساحة تعادل ما يقرب خمس غرف من التي شاهدتها بالخارج، شاشة تلفاز ضخمة، ساعة أثرية كبيرة، منضدة اجتماعات بيضاوية، رحَّبت بي مرة أخرى، ولأول مرة أتفحّصها بتمعن، امرأة متوسطة الجمال، ممتلئة قليلاً، لكن طولها يخفي ذلك بعض الشيء، أعدت تقدير سنّها ما بين أول الثلاثينيات ومنتصفها، باختصار هي امرأة عادية، تختبئ خلف مكياج مُتقن، وأناقة لا تخفى على أحد، لكنها تشبه الكثيرات، ترى لماذا تم اختيارها تحديدًا لهذا المنصب!.. أم كفاها من المؤهلات فقط كونها قريبة العضو المنتدب!

اندهشتُ من طريقة تفكيري السطحية تلك!. على أي حالٍ، بعد تبادل التحيات والمجاملات سألتني عما أرغب في تناوله فشكرتها نظرًا لاستعجالي:

- نو واي، ماينفعش.

أمام إصرارها طلبت «نسكافيه بلاك» ثم بدأنا مناقشة الوضع بسؤالها عن آخر التطورات قالت في اقتضاب:

- مفيش جديد.

- ممكن تحكيلي بالتفصيل ملابسات الموقف، وهل عندك شك في حد معين من الموظفين يكون عنده دوافع للانتحار؟

- طب اتفضل معايا أوريك المكتب اللي لاقينا فيه الرسالة.

تحركنا جميعًا، أنا وهي ونقر حذائها، وأمام مكتب كُتب على يافطته «الريسيبشن ديسك»، توقفت قائلة:

- هنا لقينا الرسالة.

فور دخولنا ارتبك الموظفون الخمسة المتواجدون بالمكان، أشارت لهم هند بإصبعها ليعود كل منهم لمتابعة عمله مرة أخرى، وبينما كنت أتفحص المكان بأشخاصه، راحت في همس تخبرني ما حدث، حكت أن الأمر، بدأ بمكالمة من مدير الأمن صباح ذلك اليوم، تفيد بعثور أحد رجاله على رسالة انتحار، مُعلقة أسفل لوحة، ثم أشارت إليها لترينيها، هززت رأسي دون تعقيب وعدتُ لتأمُّل محتويات المكتب، مساحته

كبيرة ومكيف تمامًا، بأركانه وضعت أُصص لنباتات زينة خضراء لامعة، عُلّق على الجدران، تابلوهات فنية بأحجام متباينة، حوى خمسة مكاتب خشبية، وحواسيب وطابعات، سألتها مستفسرًا:

- الأجهزة دي مش كتير شوية بالنسبة لمكتب استقبال؟

- أها، بس لاحظ إن إحنا كل يوم بيجيلنا عدد مهول من الفريش جراديوواتد للتقديم على وظايف.

ثم دنت مني أكثر، همست قائلة، بأنهم قاموا بمتابعة تسجيلات «الكاميرات» الخارجية بالبهو، المُسلَّطة على كافة المكاتب الفرعية، عن اليوم السابق للحادث وحتى لحظة اكتشاف الرسالة، وأنها توقفت عن العمل من الساعة الحادية عشرة مساءً، وحتى الواحدة إلا ربع صباح اليوم التالي، نظرًا لعطل معتاد تكرَّر كثيرًا، لكن باستثناء ذلك، لم يُلاحظ أي تصرف غير طبيعي، علاوة على تأكيد عاملات النظافة، بأنهن لم يلاحظن أي رسائل بالغرفة بعد مغادرة جميع العاملين، وأيضًا أثناء نوبة النظافة الليلية، التي تنتهي بتسليم الغرفة لرجل الأمن، ليقوم بمهمة فصل التيار الكهربائي عنها، وغلق بابها بالمفتاح، وكأن الرسالة ظهرت من العدم، إذًا الشركة كلها مراقَبة «بالكاميرات» عدا المكاتب من الداخل ومن بينها «الريسيبشن ديسك»، يبدو أن صاحب الرسالة، اختار

هذا المكتب تحديدًا، لإخفاء هويته، لكن لماذا هذا المكتب تحديدًا!

وما جدوى إضفاء جوٍّ من الغموض حول نية أحدهم للانتحار!، تذكرت كلمات الرسالة، وعاد لي شعور الألفة تجاهها، الذي زاد من إصراري، على أني سمعتها أو قرأتها من قبل. فباغتتني بسؤالها:

- إيه تقديرك للموقف؟

أشرت إلى أن الأمر كله ربما لا يتعدى كونه دعابة، لكن هذا لا يعني أيضًا الاستهانة بالموقف، ثم لثوانٍ تسللت إلى أنفي رائحة عطر رُقية المفضل، ثم اختفى، تلفَّتُ حولي بحثًا عنها فلم أجدها، يبدو أن تبعات حنين الصباح ما زالت مستمرة.

لاحظت شرودي فسألت:

- إنت كويس!

شعرت للحظات بالحاجة لأشكو لها ما يهمّني، لكني تراجعت في اللحظات الأخيرة، تنتابني الرغبة أحيانًا في مشاركة أحد، أي عابر غريب، مأساتي دون أن يسأل، أو حتى يحاول مداواتي، ثم أرحل عنه دون عودة، مجرد البوح أحيانًا يزيل عن صدورنا الكثير، لكني تراجعت في اللحظات الأخيرة مجيبًا:

- مجرد صداع.

تهز رأسها لتعود لحديثنا مرة أخرى متسائلة:

- أوكاي! شايف ممكن نبدأ منين؟

صاحبة أطول «أوكاي» قابلتها في حياتي، أعود لقضيتنا لأخبرها بما أن إبلاغ الشرطة في الوقت الحالي غير مُجدٍ، نظرًا لأن الحادث لم يقع بالفعل، وأن احتمالية كون الرسالة مجرد دعابة قائمة بقوة، إلا أن هذا ليس مبررًا للاستهانة بالأمر، لذا اقترحت أن نبدأ بالبحث في أمور العاملين بالشركة، عمن يمر بضائقة مالية كما يحدث دومًا في تلك المواقف، أو عمن نستشعر بأن ضغوط العمل قد تدفعه للانتحار، لا بُدَّ وأن الدافع وراء هذا الأمر له علاقة بنطاق العمل، وإلا ما كان قرر الفاعل ترك رسالته داخل الشركة، ولتكن البداية بالعاملين في ذلك المكتب تحديدًا، وكذلك المترددين عليه، ويمكن أيضًا من خلال «سيرفرات» الشركة، الاطلاع على محركات البحث بأجهزة «الكمبيوتر» كلها، وتبين عما إذا كان قد قام أحدهم بالسؤال عن طرق انتحار لإنهاء حياته، هنا قامت هند والتقطت قلمًا وبدأت في تدوين ملاحظاتي باهتمام.

- أوكاي، وإيه تاني؟

في تلك الأثناء، دخل المكتب رجل ستيني صارم الوجه، فشلت صبغة شعره في إخفاء ملامح عجزه، عرفت أنه رئيس الأمن، وكان قد تلقَّى تكليفًا من رئيس مجلس إدارة الشركة بالتعاون معي، الأمر الذي - كما بدا من نظراته المتحفظة تجاهي- يخالف مزاجه الأمني، ولسان حاله يتساءل عن مدى إمكانيات فلحوس مثلي لفك طلاسم الحادث الذي لم يقع بَعْد، طالبته بكشف حصر لأسماء المترددين على المكتب، في اليوم السابق لظهور الرسالة، وحتى لحظة اكتشافها. انتقلت إلى مكتب آخر خالٍ، لا يحوي سوى خادم الشركة لأنفرد بالجهاز الأم، بعد نصف ساعة لم يُسفر الفحص عن أي شيء ملفِت يثير الشكوك، سوى عدة أجهزة متفرقة بالشركة، ومنها المكتب المعني، قام مستخدموها بالولوج لمواقع إباحية في توقيتات مختلفة، لا أدري كيف قام مُبرمج سيستم الشركة بترك الحرية لأفرادها بهذا الشكل، دون حجب المواقع التي لا تخص أمور العمل، خاصة تلك المواقع.

سمعت خطوات أقدام تقترب من خلفي لأجدها تدنو من شاشة «الكمبيوتر» وهي تعدل من شعرها لتسكنه خلف أذنيها، فتلتقط عيناي قرطها، شردت للحظات من المفاجأة..

ماذا يحدث اليوم تحديدًا!

أغنية، ثم عطر عابر، وها هو حلَقٌ يشبه القرط المفضل لرقية إلى حدٍّ كبيرٍ.. هل كل ما يحدث مصادفة؟، أم أن القدر يُصرُّ على إشعال رماد الماضي مرة أخرى!، ولماذا الآن تحديدًا؟.. المؤكد بالنسبة لي الآن، أنها ليست بخير..

أثناء مغادرتي، صحبتني هند إلى مكان سيارتي لأجدها محاطة - السيارة بالطبع- بمجموعة من الشباب، غارقين في الضحك على دعابة ما، بينما جلست ثلاث فتيات أخريات أمامهم أعلى حقيبة السيارة، ما إن اقتربنا منهم حتى قفزوا، ثم رحلوا جميعًا ضاحكين حرجًا، اعتذرت هند عن الموقف، موضحة أنهم طلاب إحدى الجامعات الخاصة التي تقع بالقرب من الشركة، وأنهم اعتادوا على تلك التصرفات، رغم تحذيرات رجال الأمن المتكررة لهم، أخرجتُ علبة سجائري لألتقط منها واحدة وأشعلها، شكرتني على الحضور، وانصرفتْ لتعود لمبناها، وأنطلق أنا بسيارتي، لكن الجدير بالذِّكر؛ أن في تلك اللحظة تحديدًا، صارت الرسالة قضيتي الشخصية.

# (4)

في مكتبي وأمام «اللاب توب» أبدأ رحلة البحث عن رقية، كل ما أملكه صفحتها الشخصية على الموقع الأزرق، يدخل عم (بحيري) ليضع مج «النسكافيه» آليًا دون أن أطلبه، ثم يغادر في صمت.. سامحيني يا رقية، مضطر أخلف وعدي، لكن الأمر تلك المرة أقوى مني..

بقليل من الجهد يمكنني قرصنة حسابها، لكني لن أفعل، لست ملاكًا، ربما حنثت بوعدي معها بمعاودة البحث عنها، لكن العهد الأبدي الذي لن أقوى يومًا على خيانته، هو أن يظل كل ما بيننا نقيًا..

أما عن محاولة التواصل معها مباشرة من خلال صفحتها، فهي محاولة محفوفة بالمخاطر، قد يسبب لها مشاكل هي في غنى عنها حاليًا، وبصراحة قلبي لا يقوى على رفض جديد منها..

فتحت صفحتها، أطالع صورتها كأنها المرة الأولى وكما يحدث كل مرة، منشوراتها نادرة، ومتباعدة زمنيًا، كانت تكفيني فيما مضى، حيث كان حرصي يتمثل فقط في مجرد الاطمئنان عليها، لكن اليوم أسعى للوصول إليها، ليس من المقنع أن كل ما يحدث يحدث مصادفة، قلبي لا يخطئ أبدًا،

ولو فعل، فسيكون في أي شيء، إلا ما يتعلق برقية، أبحث بين قائمة الأصدقاء الكبيرة..

من أين أبدأ!

أطالع المنشورات لتحديد أسماء الأصدقاء المقربيين، أحدد ثلاثة أسماء، (منة مصطفى)، (أسماء العربي)، (يمنى معوض)، هُن الأكثر مشاركة وتفاعلًا معها، أطالع صفحاتهن الشخصية.. لا جديد.

أرتشف من مشروبي على مهل، تسبح عيناي في سماء الغرفة، تطرق رأسي فكرة وأبدأ في اختبارها..

أسجل الخروج من صفحتي الشخصية، ثم أحاول الدخول إلى صفحتها، أكتب اسم المستخدم، يطلب كلمة المرور، أضغط على «نسيت كلمة المرور» تظهر رسالة لتخيّرني، بين إرسال كود لبريدها الإليكتروني، أو كرسالة إلى هاتفها، يظهر رقم هاتف على هيئة نجوم عدا آخر رقمين، سبع وثمانون، دونتهما في ورقة..

كيف يمكنني الاستفادة من رقم هاتف مبتور!

أعود مرة أخرى لصفحات صديقاتها، بكتابة اسم رقية في خانة البحث داخل كل صفحة منهن، تظهر لي الأنشطة المشتركة، منشورات فكاهية، منشورات دينية، تعازي

ومباركات، تحذيرات هيئة الأرصاد، استوقفني منشور بتاريخ قديم على صفحة (أسماء العربي)، تطلب صاحبة الصفحة من أصدقائها الدعاء لابنها نظرًا لمرضه الشديد، ومن بين تعليقات المواساة وتمنيات الشفاء، التقطت عيناي تعليقًا لرقية تقول: «هخلص اللي في إيدي وأطلعلك».

أحرز هدفًا آخر في طريق الوصول إليها..

أتعمق أكثر داخل صفحة أسماء صاحبة المنشور، يبدو أنها من النوع الثرثار اجتماعيًا الذي أكرهه، لكن أحيانًا قد نجد النجاة فيما نكره، الهوس بنشر صورها الشخصية ذات الفلاتر المتعددة بغزارة، يشي بنرجسية وصلت لمرحلة متأخرة، يزيدها خطورة تعليقات مدح صديقاتها المبالغة حد الإفراط، لكن لا يعنيني الآن سوى أن أصل لهدفي، ثم فليرعَها طبيبٌ نفسيٌّ بعد ذلك على نفقتي الشخصية، في أحد المقاطع المصورة، كانت تشكو من ضجيج حفل افتتاح أحد المطاعم يقع على حد وصفها أمام منزلها، ممسكة بهاتفها ومن خلال الكاميرا الأمامية راحت تشكو الإزعاج الذي تسبب فيه افتتاح أحد «الكافيهات»، صمتت لثوانٍ حتى يتسنى لمتابعيها الاستماع لصوت الأغاني المرتفع الصادر عن مكبرات الصوت للإعلان عن افتتاح «لافيدا كافي»..

ثم واصلت حديثها عن انعدام الخصوصية، وعدم احترام

حريات قاطني «الكومبوند» الذي لم تذكر اسمه، وكعادة النساء حيث لديهن القدرة على وصف مجرد سطر، في مجلدات لا طائل منها، انخرطت في صراخ واستهجان لما يحدث وكأنها قائد كتيبة يخطب في جنوده قبيل المعركة، بينما فتحت أنا محرك البحث لأصل لعنوان «الكافيه»، لأجده يقع في «كومبوند» بالفعل يسمى «ويست بارك» بالشيخ زايد.. أحرز هدفًا آخر ولكن، السؤال المتكرر: وماذا بعد!

أرجع لأعتدل على الكرسي لأجد «النسكافيه» وقد برد.

# (5)

في المساء أعود لأجد جدتي تجلس جلستها المعتادة أمام التلفاز، تشاهد برنامجًا مسجلًا عن سعاد حسني، تمسك بصندوق مذهب يحوي مصاغاتها، وصور قديمة تقلب بينهم في تأثُّر، أستمع إلى المذيع المتغطرس، الذي راح يحاور ضيفته الخجولة عن أدوارها، وكعادته يدس بين تعليقاته أسئلة ذات نوايا خبيثة لا تُخفى على أحد، يتطرق للحديث عن عبد الحليم لتتبدل ملامحها من الجدية للخجل، لقاء من لقاءاته التي تتغذى على الإحراج واستدراج ضحاياه، لفخاخ لا يراها ضيفه إلا بعد أن يسقط بها، يتبع حديثه بمقطع من فيلم صغيرة على الحب، والبطلة تقف بفستان أبيض قصير وتسريحة شعر كاريه وقبعة نسائية بيضاء تتدلى من أسفلها ضفيرتين، تتمايل وتتراقص أمام لجنة الاستماع وهي تغني «مش كل كتاب ياقلبي في الحب ينقرا» ومعها تنقر جدتي بعصاها في استمتاع، وما زالت تطالع ما بين يديها من ذكريات، تتنهد طويلًا وهي تقول:

- أنا دخلت فيلمين سينما مع جدك، فيلم الخطايا والفيلم ده، كان دايمًا يقولي فيكي شبه من سعاد حسني..

أكتم ضحكة وأنا أهمس مداعبًا:

- كان مُجامل الله يرحمه..

- اخرس.. على الأقل مكانش طروبش زيك.

أدنو منها وأُقبّل رأسها لتسأل بخبث مع غمزة عين:

- شكلك مبسوط.. إيه! في أخبار عنها؟

وكأنها تراقبني بعدسة سرية عن بعد، لماذا تسأل اليوم تحديدًا!. تصدر رنة من الهاتف، ألتقطه من جيبي لأجد طلب صداقة جديد، فألقي الهاتف مع سلسلة المفاتيح على الأريكة، ثم أجلس جلستي المفضلة أرضًا مستندًا على ركبتي بجوار مقعدها، وأرح رأسي فوق فخذها.

- عمرك أطول من عمري يا بطوط، النهاردة كان يوم غريب أوي!

بحنان تمسح على شعري:

- طب احكيلي!

أسرد لها أحداث اليوم كله، على أمل أن تقدم تفسيرًا لكل ما حدث، فتقاطعني في تساؤل:

- حلوة هند دي!

بنفاد صبر أعتدل، وأسألها عن سر إصرارها على تكرار

السؤال نفسه كلما ذكرتُ أمامها اسم فتاة، تجيبني في حزن:

- نفسي أطمن عليك يا طارق قبل ما أموت.

أقبّل يدها في رعب من مجرد تخيل الفكرة:

- بعد الشر، أنا مُتّ قبل كده يوم حادثة أبويا وأمي، ومعنديش استعداد أموت تاني.

تطرق رأسها في حزن، وتلملم مقتنياتها داخل الصندوق مرة أخرى، تسقط من بينها ورقة بيضاء بالية، ظننت أنها إحدى الرسائل القديمة، فتحتها بحرص لأقرأ المكتوب بها:

«ما عدت أملك من الشجاعة سوى ما يعينني على الرحيل، وترك آثار دمائي فوق أناملكم على أمل أن تعترفوا يومًا بذنبكم نحوي، فاليوم فقط أدركت معنى أني حر مما أنا عنه آيس وعبد لما أنا له طامع».

عقدت الصدمة لساني، رفعت الورقة أمام وجهها وأنا أسألها:

- مين صاحب الرسالة دي؟

ضيقت عينيها، وهي تحاول قراءة الكلمات، ثم أشاحت بوجهها قائلة:

- أنا عارفة! جدك وأبوك الله يرحمهم كانوا غاويين فلسفة.

وفي غرفتي جلست شاردًا لما يقرب من الساعة أحاول تدارك الأمر، كيف وصلت الرسالة إلى جدتي، أم أن الأمر مجرد مصادفة، لكن المصادفات لا تحدث بهذا التطابق، أنهكني الفكر حتى كدت أن أفقد عقلي، في النهاية قررت أن أترك الأمر، علّه يتضح يومًا ما، أشعلت سيجارة وقفزت أمام الحاسوب لأمارس الترحال، وتلك المرة مع.. السندريلا..

# (6)

***لندن***

***مساء 21 يونيو 2001***

***بناية ستيوارت تاور الفاخرة..***

بإحدى شقق الطابق السادس، وتحديدًا بمكمني بإحدى الغرف الجانبية المُظلمة، ومن خلال باب الغرفة الموارب، أراها تجلس على أريكة وثيرة، أمام شرفة تطل على ليل عاصمة الضباب، الذي لا يزيد وحشة عن قلبها الوحيد البائس، توثق إحكام الشال حول كتفها، قبل أن تمد يسراها لتحتضن فنجان القهوة الداكنة، وتلتقط بيمناها السيجارة التي لا تذكر رقمها، ينبعث من إحدى الغرف الأخرى صوت العندليب، «لكن سماءك ممطرة وطريقك مسدود مسدود، فحبيبة قلبك ياولدي نائمة في قصر مرصود».

تسافر مع دخان سيجارتها قبل ثلاثين عامًا، حين كان يشير إليها المجد ببنانه، ومضات «الكاميرات»، نظرات الانبهار، تهافت منتجي ومخرجي السينما، على نيل شرف العمل معها، سيل العقود مفتوح القيمة، صيتها الذي انهالت على إثره دعوات ملوك ورؤساء، لزيارة دولهم، الأمر الذي سول لصفوة زائري الليل، من استغلالها أسوأ استغلال، زمن

من شهرة، لم تنَلْهَا ممثلة من قبل ولا بعد، وصولًا لوعكة صحية ألمت بها، مع تدهور حالتها النفسية، ليتحول الجسد المارليني لآخر مترهل بالشحوم والأحزان، فتهرب صاحبته من الحياة، وتختبئ بعيدًا عن الأنظار، في رحلة علاج بلندن كان من المُقدر لها عدة شهور، ولكن امتدت لسنوات، أشاعت الصحف وقتها سفر سعاد للاستجمام، وهو الخبر الذي لم تنفه، خاصة وأنها كرهت أن يراها المعجبون على تلك الحالة، لكن ما قتل نفسيتها قتلًا، ادعاء إحدى الصحفيات بأن فقرها اضطرها لتتسول من رجال أعمال في لندن.

رماد سيجارتها المنسية، يحتضر فوق ظهر كفها، فيعيدها لواقعها مرة أخرى، تفيق فتجد قهوتها قد بردت، تهم لصنع واحدة أخرى، لولا أن أستوقفها صراخ هاتفها، تندهش، فلم تسمع صوت رنينه منذ أمد، بتوجس تلتقط السماعة، أسمع بالكاد من خلالها صوت أنثوي متحشرج:

- ازيك ياسعاد أنا نادية، تعيشي وتفتكري حبيبتي، عيد ميلاد حليم في الجنة يارب

تجيبها بوهن:

- بولا، أخيرًا افتكرتيني!

- مين يقدر ينسى السندريلا، وحشتيني يا زوزو.

تضغط على زر الإسبيكر فيتضح الحوار لأذني أكثر، يغرقان في حديث طويل عن الذكريات، تسألها بولا عن ميعاد عودتها لمصر، تحكي لها سعاد عن معاناتها التي عاشتها منذ قدومها للندن في رحلة العلاج وقسوة الوحدة والحزن اللذين ألما بها، ثم تبدلت نبرة البؤس بفرح وهي تبشرها بقرب ميعاد العودة، بعد تعافيها ونجاحها في إنقاص وزنها، خاصة بعد قطع علاجها بالكورتيزون، وأنها قد حجزت بالفعل تذكرة السفر بعد أيام، ويكفي من الوقت ما أمضته في بيت صديقتها ناهد بلندن، وأنها قامت بتسجيل رسالة صوتية لأصدقائها ومعجبيها، تصف لهم مدى اشتياقها للقائهم مرة أخرى، سألتها بولا عما تنوي فعله فور عودتها، أخبرتها بحماس أنها وافقت أخيرًا وبعد تفكير طويل، على السيناريو المعروض عليها، من قِبَل المخرج الكبير آنذاك رأفت الميهي.

بولا:

- لسه مُصرة على موضوع المذكرات ده؟

كسا الحزن نبرتها مرة أخرى، والتمعت عيناها في تحدٍّ وهي تجيب:

- أكتر من الأول.

ثوانٍ من الصمت، قبل أن ينتقل لها القلق من خلال صوت

بولا:

- سعاد، أنا خايفة عليكي من الراجل ده.

- ما تخافيش يا دودو، عمر الشقي باقي.

أنهت المكالمة، فأجدها تتحرك بتثاقل نحو المطبخ، تعالى أزيز الإنتركم المثبت على الباب، فتعود لتضغط على الزر المربع؛ لتسأل عن هوية المتصل، يأتي صوت أنثوي من خلال الجهاز لسيدة يبدو عليها الاضطراب، ومن سياق الحديث بينهما، أتبين أن الصوت الآخر يخص ناهد، مُضيّفة سعاد في شقتها، تخبرها بأنها تقف في بهو البناية، وتطالبها بترك باب الشقة مفتوحًا، نظرًا لفقدها نسخة المفاتيح خاصتها، وبالفعل تستجيب سعاد لها، وتترك باب الشقة مواربًا، وتعود للمطبخ وهي تتساءل عن سر ارتباكها.

تعلو ضربات قلبي فأغوص أكثر في ظلام غرفة المراقبة، محدقًا إلى حافة الباب المواربة.. هل من قتلها هي صديقتها ناهد كما أشيع؟ و بواعز شخصي، أم تحريضي من أحد رجال الدولة الكبار؟ أم تمَّ تكليف أحد الرجال المدرَّبين لتنفيذ المهمة وفقًا لرواية أخرى؟ ولو كذلك، كيف يمكنني إنقاذها والتعامل مع مجرم متخصص في التصفية؟

تزداد حيرتي، خاصة وأني لا أملك سلاحًا، أو أي أداة حادة

للدفاع، يزداد الترقب وعيناي لا تفارقان الفراغ بين الباب وحلقه، ألمح خيالًا يقترب، ثم يدًا تمتد في حذر تمسك بحافته، حجم اليد يشير إلى أن صاحبها رجل بالتأكيد، إذًا هو السيناريو الأصعب، تسلل شخص ملثم للداخل، ليراها من ظهرها تقف أمام البوتاجاز، تمسك بيد كنكة القهوة في انتظار لحظة غليانها، تسمع دوي تحطم المزهرية التي تعثرت بها قدم الرجل، امتدت يده بطريقة آلية ليخرج سكينًا من خلف حزامه، تهرع خارج المطبخ لتراه واقفًا أمامها، بفزع تُخرس فمها بكفها، يتسمر الاثنان، وكأن الزمن قد توقف لثوانٍ قبل أن تستجمع قواها وتهرع باتجاه الشرفة، وكأي امرأة مصرية أصيلة، تطلق العنان لصراخها الحبيس، لكن الأمر في مدينة الضباب يختلف عن الشارع المصري، الصراخ لن يجدي نفعًا، ارتبك الرجل لثوانٍ وكأنه يعيد التفكير، والغريب في الأمر أنه أغمد سكينه خلف حزامه مرة أخرى، وكأنه قرر تنفيذ خطة بديلة، لحق بها داخل الشرفة، حاول شدها للداخل، لكن وزنها الزائد والأدرينالين المنفجر داخل جسدها، حالا دون ذلك، ليفلت يدها ويسقط أرضًا بغضب، وكأنه اكتشف أن المهمة ليست بالسهولة التي توقعها، وذاك الأمر الذي أفقده عقله، عاود النهوض ليخرج سكينه مرة أخرى، في تلك اللحظة انطلقتُ أنا مغادرًا مخبئي، لأمنعه قبيل الوصول إليها، التحمنا سويًا لنسقط معًا، ويفلت

السكين من يده.

رغم ارتباكها الزائد بظهوري، اغتنمت المسكينة الفرصة، هرعت لتغادر الشقة التي ما زال بابها مفتوحًا، وهي تواصل الصراخ هاربة، يتجاهل الرجل أمري ويحاول اللحاق بها، فأُمسك بقدمه ليتعثر، ويقبض على قطعة حادة من المزهرية المهشمة، يقذفها نحوي لتخطئني ثم يفر هاربًا..

ألحق به، أنظر من أعلى لأجدها قد وصلت للدور الأرضي ولا أثر للقاتل، وكأنه ذاب، أفكر أنه ربما لديه شقة في نفس البناية واختبأ داخلها، أغادر المبنى لأجد جسدها هامدًا مسجى أمام البناية وقد فارقت الحياة، ومن خلف الحشود، أتعرَّف على القاتل من ملابسه، يقف يتابع المشهد وكأنه يتأكد من موتها، تلتقي أعيننا، يتخلل الجمع نحوي، أنسحب بهدوء، أتوارى خلف إحدى الأشجار، وأغادر الرحلة في أسى.

# الفصل الثالث

# (1)

***في صباح اليوم التالي..***

***بالشيخ زايد***

أقف بسيارتي أمام إحدى بوابات ويست بارك، رفع حارس الأمن الحاجز الخشبي ليسمح للسيارة بالمرور، بالطبع بعد أن سأل عدة أسئلة روتينية بلا حماس عن هويتي وسبب الحضور، أجبته بأني أبحث عن شقة لأشتريها، لم يبدُ عليه الاقتناع، لكنه وصف لي سريعًا مقر إدارة «الكومبوند» ثم سمح لي بالدخول وكأن بأسئلته أرضى ضميره الوظيفي، سلكت طريقًا طويلًا يحفه النخيل من الجانبين، مثبت فوق بعضه «كاميرات» مراقبة ولافتات إرشادية، توقفت بالقرب من جناييني يهذب أطراف إحدى الأشجار، لأسأله عن «لافيدا كافيه»، قطب جبينه معتذرًا في حرج:

- لا مؤاخذة يا بيه أنا لسه جديد هنا، ممكن تسأل الأمن.

ثم أشار لرجل، يقف بزيّه المميز داخل أحد الأكشاك، شكرته واقتربت من الأخير لأعيد سؤالي، أخرَج جهازًا لا سلكيًا، وبعد حوار قصير مع آخر، وصف لي الطريق، وصلت بالفعل لأجد الكافيه لا يزال فارغًا في هذا الوقت المبكر، دعاني

أحد العاملين للدخول وهو يرتب وضع المقاعد، لوَّحت له شاكرًا، بينما نظرت للجهةِ المقابلة، فرأيت عدة بنايات ذات أدوار أربع متوالية الأرقام، لكن تشترك جميعها في أنها تقع في مجموعة تحمل رقم 11.. ترى أي بناية تسكنها رقية؟.. أي باب يشهد مرورها يوميًّا؟.. أي أرض تسعد بأن تطأها قدماها؟.. هل ما زالت نائمة أم استيقظت لتمارس مهامها اليومية؟..هل تخرج في شُرفتها صدفة فأراها ويهنأ قلبي؟.. أنتشي، فقط لمجرد فكرة أني أتنفس ذات الهواء الذي تتنفسه.. أخرجت هاتفي لأزور صفحتها.

كتبَتْ بالأمس على صفحتها وبعد انقطاع شهرين وثلاثة أيام: «لا عزيز يُنسَى ولو مر على وفاته ألف سنة»...

لوهلة أسرني المقطع الأول «لا عزيز يُنسى»، قبل أن تحبطني الكلمات التي تلته، لكن بقليل من الأمل يمكنني الاكتفاء بذاك المقطع واعتباره رسالة لي، أشفقت على كبريائي من هذا التفكير، ألتلك الدرجة يقتلني الحنين!

أي منشور جديد لها، سعيدًا كان أو حزينًا، يصيب قلبي بشعورين في منتهى التناقض، فرحة وانقباضة.. لو كان يعبّر عن حالة حزن، أحزن لحزنها، ثم أفرح لمجرد استشعار أنها قررت مشاركتي هذا الحزن، فلا مبرر لأن تُظهر المنشور للعامة، سوى أنها ترغب في مشاركتي إياه، دون أن تطلب

ذلك بطريقة مباشرة.. أما لو كان منشورًا يعبر عن حالة من السعادة، فيرقص لها قلبي بالتأكيد، لكن سرعان ما ينقبض.. كيف لها أن تفرح ولو لثوانٍ في عالم لا وجود لي فيه، ترى في الأمر شيء من الأنانية! حسنًا، أنا لست ملاكًا على أي حال.

في محرك البحث فتشت عن أي «جروب» يحمل اسم «كومبوند ويست بارك»، وجدت واحدًا بالفعل، أرسلت طلب الانضمام ولم تتأخر الاستجابة كثيرًا، دخلت لأجد منشورات متباينة الهدف؛ منشور يسأل صاحبه عن كيفية التمليك، وآخر يشكو تكرار انقطاع الماء عن بنايته، وأخرى تسأل عن وسيلة للتواصل مع قاطني مجموعة 11، للاطلاع على آخر المستجدات، تابعت تعليقات المنشور الأخير، لأجد إحداها يحوي رابطًا لـ «مجموعة واتساب»، ضغطت عليه لأصبح أحد أفراده، طالعت أرقام الهواتف المشتركة في الجروب، وخاصة التي تنتهي بسبع وثمانين، أخيرًا وجدت ثلاثة أرقام تنتهي بسبع وثمانين، بحثت عنهم من خلال برنامج كشف هوية الأرقام، لأحصل أخيرًا على رقمها، سُجّل باسم «رقية شاكر»، تصفيق حاد صدر رغمًا عني، وأنا أطالع الاسم في سعادة، لم يقطعه سوى نظرات التوجس الصادرة من عيني رجل المقهى، الذي تناسيته تمامًا، لوحت له مازحًا فلم يجِبني، درءًا للشكوك، تحركت على مضض لأغادر على

أن أعود مرة أخرى في وقت لاحق، يكفيني دقائق عشتها بالقرب منها، والفوز برقم هاتفها، ومؤكد لنا عودة.

في طريقي للمغادرة لاحظت وجود صيدلية، بعد ثوانٍ من التفكير، اقتربت منها بسيارتي، ثم أخرجت هاتفي مرة أخرى، سجلت الرقم المدوَّن على لافتتها، فتحت محرك البحث، كتبت لأستعلم عن الأدوية الناقصة في السوق.. ظهرت عدة أسماء لأدوية، يشكو مستخدموها من معاناة البحث عنها لندرتها بالصيدليات، انتقيت اسمًا عشوائيًّا، كان له نصيب الأسد من الشكاوى، اتصلت برقم الصيدلية، أجابني رجل بطريقة آلية:

- صيدلية دكتور شوقي مع حضرتك.

سألته عن اسم الدواء ليجيبني بلا تردُّد:

- غير متاح للأسف يا افندم، ممكن أجيب لحضرتك بديل له؟

- للأسف مابستخدمش غيره، ممكن بعد إذنك بمجرد ما يجيلك تبعتلي علبتين ضروري جدًّا؟ عنواني عندكم، أنا من سكان ويست بارك.

- آه طبعًا تحت أمرك، ممكن رقم التليفون؟

- 01005281487.

بعد ثوانٍ من الصمت:

- الرقم باسم مدام رقية، جروب 11 عمارة 27 شقة 41، تمام كده؟

# (2)

في طريقي لعملي تلقيت اتصالًا من هند، تسألني عن إمكانية حضوري، اعتذرت نظرًا لانشغالي ببعض الأعمال، وأن جدولي لن ينتهي قبل السابعة، بعد برهة من الصمت، اقترحت مقابلتي في أي مكان خارج إطار العمل، ثم اتفقنا على أن نتقابل في وسط البلد.

وفي الموعد المحدد مساءً، في قهوة تطل على ميدان التحرير كنت أنتظرها، قهوة متواضعة، لكن زادها الموقع جمالًا وعبقًا، جدرانه المتهالكة تختبئ خلف لوحات فنية، مقلدة بالطبع، وصور لفنانين ورؤساء راحلين، تبايُن روادها بين مثقفين وبسطاء، شباب يضيء الأمل وجوههم، وعجائز أطفئ الشقاء شغفهم، اقترب شاب يحمل صينية ليسألني عما أشرب، طلبت قهوة سادة ليصيح مكررًا طلبي، وكأنه يخبر العالم به ثم ابتعد، أخرج هاتفي وللمرة العشرين، أنظر لرقم رقية وكأنني أتأكد من حفظه على هاتفي، قطع شرودي نقر كعب حذاء نسائي، لأجدها هند تُقبِل، كعادتها بوجه فول ميكب ضاحك، بدلة نسائية كاملة، جاكيت وبنطال أسودان وقميص أبيض، أتساءل عن كيفية حفاظها على مكياجها طوال الوقت وحتى ساعة متأخرة من اليوم، استغرقت دقائق في التقاط أنفاسها وهي تتفقد معالم المكان، قبل

أن تخبرني بآخر المستجدات في قضية الرسالة الغامضة، وفقًا لما ذكرته، قررت الاجتماع بنفسها مع العاملين، للنقاش حول رأيهم في نظام الشركة، وهل لديهم أي مقترحات لتعديل مسارها والارتقاء بها أكثر، ودست بين الأسئلة الموجَّهة إليهم، سؤالٌ ماكرٌ - على حدٍّ وصفها- عن لو فكرت في الانتحار فأي الطرق تراها مناسبة من وجهة نظرك؟ واندهشت (هي) حينما رأت ملامح التعجب في أعين الجميع، لم تخطئ نظرتي في تلك المرأة أبدًا، غير جديرة بمنصبها على الإطلاق، ويبدو مما حكته أن مهارة تواصلها مع العاملين في العموم، صفر كبير، فكيف تتوقع أن يأتي إليها أحدهم ليقول بكل أريحية: «مرحبًا، أنا صاحب الرسالة»، سألتها لماذا لا يتم التعاقد مع استشاري نفسي لعمل جلسات سريعة مع أفراد الشركة، كل على حدة، الذي أعتقد أن بوسعه استنباط اسم صاحب الرسالة، أو الكشف عمن لديه ميول انتحارية، علاوة على أن هذا، يعتبر بمثابة خدمة، يمكن أن تحظى بقبول الجميع، خاصة وأن تكلفة الكشف عند الأطباء النفسيين باهظة الثمن، بعيون متسعة أيّدت فكرتي:

- فكرة ممتازة، وأنا ممكن أحضر الجلسات دي.

كدت أن أرجوها ألا تفعل، لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة، أخرجت ملفًا يحوي أسماء العاملين بمكتب

«الريسيبشن ديسك» ونبذة مختصرة عن كل منهم، ورسالة الانتحار، أمسكت بها للمرة الأولى، لاحظت أنها مصفرة وتكاد تكون بالية، يبدو أن كثرة تدوالها بين الأيدي أفسدها، طالعت محتويات الملف سريعًا، ثم وضعته أمامي على الطاولة، ارتشفت من قهوتها وهي ترمقني قبل أن تضعها على المتضدة، ثم دون مقدمات:

- ما تكلمني عن نفسك!

ضحكت رغمًا عني، فتغيرت ملامحها لمزيج من الإحراج والغضب:

- آسف، بس سؤالك فاجأني، عمومًا أنا مابعرفش أتكلم عن نفسي، إنتي حابة تسألي عن إيه؟

لوحت بيدها بلا مبالاة مصطنعة وهي تلتقط فنجان قهوتها:

- نيفر مايند، مجرد دردشة.

- طيب عمومًا، اسمي إنتي عارفاه، عندي ٣٨ سنة وعايش مع جدتي بعد وفاة والدي ووالدتي.

بدا عليها التأثر ليخفت غضبها تدريجيًا.

- سوري، ربنا يرحمهم.

- آمين، وإنتي!

- من باب الدردشة برضو!

قالتها بابتسامة.

- مايبقاش قلبك أسود، قولتلك مكنش قصدي.

ابتسمت وهي تقول:

- ماشي يا سيدي، اسمي إنت عارفه، عندي ٣٥ سنة، وعايشة لوحدي، واتخرجت من...

قطع حديثنا رنين هاتفي، شعرت بالقلق حين رأيت اسم المتصل فأجبت بسرعة:

- ألو، إنتي كويسة؟... ألو... ألو..

# (3)

# هند

كوني أنثى، يرغمني على مواجهة صعوبة، في تقبُّل شخص يُشعرك دومًا بأنه لا يطيقك، أو على أقل تقدير، مُجبر على التعامل معك. طارق شخص مُحيِّر تمامًا، أحيانًا أشعر برغبته في المساعدة، وأحيانًا كثيرة أشعر بالعكس، حتى إني مساء يوم قابلته أول مرة، قبل يومين، وأثناء تصفحي حسابي على موقع التواصل الاجتماعي، صادفت حسابه الشخصي، فقُمت بإرسال طلب صداقة إليه، لكنه لم يقبله حتى الآن.. ومع ذلك حدسي يُخبرني بأنَّ لا مبالاته ليست سوى انعكاس لألمٍ ما، هذا الشعور الذي دفعني لكسر تحفظ البدايات السخيف لأقول:

- ما تكلمني عن نفسك!

وضع فنجان قهوته بسرعة، ولاحت على وجهه ضحكة فشلَ في إخفائها، ردة فعل أغضبتني حد الجنون، لماذا جرأة المرأة تصدم الرجل الشرقي دومًا! مَن قال إن المبادرات حكر على الرجال فقط!

فكرت في التقاط الملف والرحيل بهدوء، لولا أن ذاك المغرور سارع بالاعتذار والتوسُّل لكي أبقى، بدأ الحديث عن

نفسه، مؤكدًا على فكرة أنه عازب يعيش مع جدته، وكأن الأمر يُقلقني، بنظرات عينيه الخاطفة تجاه قرطي، طلب أن أحكي له عني، وما إن بدأت حتى قاطعني رنين هاتفه، للحق، اعتبرتها إشارة، وقررت الرحيل بمجرد انتهاء مكالمته، بدأ كلامه مع الطرف الآخر، لا بُدَّ وأنها صديقته، يحاول الظهور أمامي بمظهر الدنجوان، كم هو مسكين هذا النحيل البائس!.. بعد ثوانٍ ظهرت عليه ملامح القلق والذعر، ويبدو أن الاتصال قد قُطعَ لسببٍ ما، أجرى اتصالًا آخر، وعيناه من التوتر تتأرجحان كبندول الساعة، مال برقبته على كتفه، ليقبض بأذنه على الهاتف، بينما أخرج من جيبه أوراقًا نقدية، التقط إحداها وبيدٍ مرتعشةٍ ألقاها على الطاولة، وغادر في ارتباك، دون كلمة أو إشارة، ثم راح يصيح في الطرف الآخر:

- زينب، عدي على الشقة شوفي في إيه!

جمعت حقيبتي وأوراقي، ثم هرولت لألحق به، وأنا أستعطف كعب حذائي، الذي قرر أن يعاقبني نظير عدم احترامي له بالجري مسرعة، في النهاية فشلت في مقاومته، ونجح هو في إسقاطي أرضًا، نهضت بصعوبة وأنا أنفض عني الأتربة، التي غطت بنطالي الأسود، الذي لم يَسلم من قطع صغير أعلى ركبتي، ولاح من خلاله خدش أحمر، لملمت أشيائي المتناثرة حولي، أخرجت هاتفي لأراجع مظهري في

الكاميرا الأمامية، تعالى صوت شجار عن بُعد، تحركت وأنا أستوضح ما يحدث، لأجد عدة رجال مجتمعين في وصلة ضرب مبرح لأحد الأشخاص، بينما تعالى صوت نسائي لسيدة:

- حرامي، حرامي.

وما إن اقتربت من التجمهر، حتى أبصرت الحرامي المضروب عن قُرب، طارق، بجسده النحيل وبنيته الضعيفة، يستقبل السباب واللكمات من جميع الأنحاء، بينما يرفع يده مدافعًا عن نفسه ويصيح:

- ماعملتش حاجة، ماعملتش حاجة!!

ظنَّ المارة أنه سرقني وأنا أركض خلفه لأحاول اللحاق به.

# (4)

# طارق

كان موقف في غاية الإحراج، لم أتعرض له من قبل، ركضي لنجدة جدتي التي هاجمتها نوبة السكر، ولحاق هند بي، وضعاني في شبهة الاتهام بفراري من جرم لم أرتبكه، فوجئت بأحدهم يعترض طريقي، لأتعثر وأسقط أرضًا، ودون تحقُّق، سرعان ما اجتمع الناس لضربي، ربما الفائدة الوحيدة مما حدث، هو وقف جماح اندفاعي وذعري، اللذين قد يتسببان في أي حادثٍ يلحق بي قبل أن أصل لإسعافها، حاولت الدفاع عن نفسي، لكن كانت الغلبة للكثرة والتدافع، ولم يسعفني صوتي الواهن أمام صياحهم الهمجي، وكأنهم قبضوا على جاسوس إسرائيلي، تملّكني اليأس، للدرجة التي قررت معها الاستسلام لرجمي، بالسب والضرب من قِبَل المتجمهربن حولي، حتى وجدت الرجل الأكثر حماسة من بينهم، يتراجع للخلف بقوة من جراء جذب أحدهم، لتظهر هند من خلفه وهي تصيح بشراسة في الجميع:

- ستوب، ستوب إت.

تحوَّلَتْ لوحش، تتحرك بسرعة ورشاقة، لا يتناسبان مع جسدها الممتلئ وكعب حذائها العالي، فأراها تدفع عني

واحدًا، وتسب آخر بإنجليزية ظنها شكرًا، حتى هدأت حدة العنف في العيون المندهشة، اقترب منها شاب يرتدي جلبابًا، رفع طرفه حتى خصره، وهو يسألها بتحفز:

- سرق منك إيه ياأبلة؟

صاحت في وجهه:

- ناثينج.

التفت إليَّ في غضب، وبغباء الدنيا صاح:

- طلع الناثينج بتاعها ياحيلتها.

# (5)

# هند

أمام ارتباكه وتوتره والخوف الذي لم أتوقع أن أراه يومًا في عينيّ رجل، قررت أن أقلّه بسيارتي إلى منزل جدته، وفي الطريق، بكلمات متقطعة، أخبرني أنها شعرت بدوار، ولم تقوَ على الحركة، ربما جراء نسيان تناول جرعة دواء السكر، لكنها بالكاد، نجحت في التقاط هاتفها، والاتصال به، وفزع حينما سمع صوت سقوط الهاتف من يدها، الأمر الذي دفعه ليهرع لنجدتها.

- طب إهدا بس، إفري ثينج ويل بي أوكاي، إن شاء الله.

غريب أمر الرجال، يبدون قُساة غلاظ في مواجهة الحياة، حتى يستشعر أحدهم الخطر تجاه من يحب، فيصير ما أشاهده الآن، طارق يجلس متكور كالطفل، يسند رأسه إلى زجاج السيارة، بينما يراقب الطريق، وقد هدأ روعه إلى حدٍ ما، دون كلام، يوجهني مشيرًا بيسراه، حتى وصلنا لشارع هادئ بحي العباسية، أشار لبناية عتيقة مكوَّنة من خمسة طوابق، أبطأت السيارة وأنا أحاول صفها بمحاذاة الرصيف، فتحَ الباب وقفز مسرعًا قبل أن أتوقف تمامًا، بعد برهة لحقت به وأنا أتحسس خطواتي، أناديه في تساؤل عن رقم

الشقة أو الطابق، لكن دون ردٍّ، أصعد السلم وأنا أرهف السمع، حتى وصلت لإحدى الشقق، وكان بابها موارب، طرقته بهدوء ليجيبني من الداخل:

- تعالي يا هند.

خطوت داخل الشقة، أثاث عتيق لا يخلو من الأناقة، أريكة ضخمة وكرسي هزاز، أمام شاشة تلفزيون كبيرة، تتدلى من السقف العالي نجفة كريستال فخمة، ولوحة لامرأة بائسة تجلس مكتوفة الذراعين، رائحة طيبة، بينما ما أصابني بالحيرة رؤية كاميرتين مراقبة، مثبت إحداها بأحد أركان الصالة، بينما ثُبتت الأخرى على الحائط أعلى الشاشة.

تلتقط أذناي عدة أصوات متداخلة، صادرة من إحدى الغرف.. صوت لامرأة تقول في وهن:

- يخليها زينب لحقتني في آخر لحظة، ربنا يبارك فيها ويزقها بابن الحلال اللي يستاهلها، بس إنت إيه اللي بهدل هدومك كده؟

يبدو أنها الجدة توجّه حديثها لطارق، الذي صدّق على كلامها موجهًا حديثه لإحداهن:

- معلش يا زينب تعبناكي.

ليعقب صوت ثالث أنثوي:

- ربنا يخليكي لينا ياطنط، ومايحرمناش من حسك أبدًا.

أنقر باب الغرفة ليدعوني طارق للدخول وقد هدأت ملامحه تمامًا.

- دي هند يا بطوط، صممت تيجي تطمن عليكي بنفسها.

تغيرت ملامح الفتاة، بينما تهللت أسارير الجدة الممدة على الفراش وهي تدعوني للاقتراب.

- اتفضلي حبيبتي، حصلت البركة، أهلًا وسهلًا.

استأذنت زينب وهي تلملم أشياءها، ثم غادرت، بينما ظلّت الجدة تتفحّصني بابتسامة ودودة لم تفارق شفتيها الرقيقتين المجعدتين، ثم ضيقت عينيها فجأة وهي تتساءل عما أصاب قدمي، أخبرتها بأنه أمر لا يستدعي القلق، مجرد جرح بسيط من أثر الوقوع، انتبه طارق لأول مرة وهو ينقل بصره بين قدمي ووجهي بنظرة شفقة ممزوجة بامتنان، بينما نفضت هي عن جسدها الفراش، ارتدت نظارتها الضخمة، همت بالنزول من سريرها العالي وهي ترتكز على عصاها لتهب واقفة، وأمام نظرات دهشتنا، تحركت ببطء منحنية الظهر، نحو أحد الأدراج، لتخرج علبة صفيح حمراء، فتحتها ثم التقطت منها إبرة وخيط، ثم توجهت للدولاب

وانتقت عباءة سوداء فضفاضة، ألقتها فوق قدمي:

- قومي اقلعي البنطلون عشان أخيطهولك.

رفعت يدي لأشكرها:

- الموضوع مش...

- اخلصي مش عايزة كلام كتير.

قالتها مقاطعة ثم خاطبته آمرة:

- هاتلها بيتادين وقطن من الحمَّام عشان الجرح مايتلوثش.

قام مستجيبًا في استسلام، وكأن ما يحدث طبيعي، لحقت به لأجده عائدًا من الحمَّام يحمل المطلوب منه، ناولني إياه، ثم بلا كلمة أشار لإحدى الغرف، بتردد فتحت بابها ودخلت، تفحصت محتويات الغرفة بحثًا عن «كاميرا» فلم أجد، أوصدت الباب، شرعت في خلع بنطالي، بللت قطعة سميكة من القطن بالسائل الأحمر القاني، كتمت بها الجرح، دقائق من الانتظار حتى جف السائل، قضيتها في مطالعة محتويات الغرفة، يبدو أنها تخص طارق، سرير صغير مُرتب بعناية، دولاب ومكتب فوقه حاسوب وشاشة كبيرة، تمثال معدني بحجم الكف لحصان يلمع بلون الذهب، نظارتان واقع

افتراضي تشبهان الخوذة حجمًا، كانت إحداها أمام شاشة الحاسوب، بينما عُلقت الأخرى على حامل مثبت في الحائط خلف الشاشة، عاد لزهني التساؤل عن سر «كاميرات» الصالة، ربما سأسأله في وقت آخر عنها، في تلك اللحظة أدهشتني الأريحية التي أمارسها، بجلوسي نصف عارية في منزل أزوره لأول مرة، ربما سر هذا في تلك العجوز، جدة تشبه جداتنا جميعًا، حنونة لكن قوية رغم وهنها، قطع أفكاري صوت نقرة خفيفة وهو يسأل:

- إنتي كويسة!

سترت فخذيي بإحدى الوسادات، وأنا أجيبه:

- خارجة حالًا.

ارتديت العباءة فوق القميص، خرجت لأعود لغرفتها وأناولها البنطال، بدأت بعيون ضيقة من خلال نظارتها، راحت تطعن رأس الإبرة الضيق، بطرف الخيط العنيد، وحينما تمت معركة اللضم بنجاح، تبعتها بوخزات متتالية، لتدور بالخيط حول شق الثياب الممزق لتضميده، وسألت دون أن تنظر نحوي:

- متجوزة يا هند؟

- لا يا طنط.

- يرزقك بابن الحلال يا ضنايا.

ثم ابتسمت، قبل أن تردف وهي ترمقني بطرف عينيها، بنظرة ذات مغزى:

- اللي دخل أوضة طارق دخل التاريخ، ده مابيخلنيش أنا أدخلها، واضح إنه بيعزّك أوي!

ابتسمت دون رد، ثم رحت في صمت أتابعها لدقائق، حتى انتهت من مهمتها، ويعود البنطال كما كان، وكأنه لم يُخدَش قَط، عُدت لغرفة طارق، أرتديه مرة أخرى وخرجت، مددت يدي أناولها العباءة فدفعتها نحوي مرة أخرى:

- ده هدية مني ليكي.

شكرتها لأجدها تفتح لي ذراعيها، تعانقنا ثم انصرفت، لحق بي طارق ليشكرني بامتنان حقيقي، واعتذر عن مُجمل أحداث اليوم.

- العفو على إيه! أنا اللي متشكرة بجد على كل حاجة.

رافقني لسيارتي، أدرتُ المحرك، ودّعني بابتسامة، ثم انطلقت.

# الفصل الرابع
# (1)

***صباح اليوم التالي***

***«جلوبال ماستر هاند»***

أمام حجرة كتب على بابها «cleaning service» تدخل (مديحة) ذات الخمسين عامًا، تستعد ليوم جديد من العمل، فتخلع ملابسها، ثم ترتدي الزي الموحد لعاملات النظافة، تُعلق بحزام خصرها مُعطر وزجاجة كحول وفوطة نظيفة، قبل أن تجمع مقشة وممسحة ودلوًا، تتجه لأحد المكاتب وتبدأ في التنظيف، تلحق بها زميلتها سعاد، التي تهللت أساريرها بمجرد رؤيتها.

- حمد الله على السلامة يا دوحة، رجعتي إمتى؟

تبادلها مديحة التحية وهي تواصل عملها:

- لسه راجعة النهارده أول يوم، إنتي عاملة إيه؟ وأخبار الشركة إيه؟

تضحك (سعاد):

- أخبارها لا تسر عدو ولا حبيب، عرفتي اللي حصل وإنتي

مسافرة؟

تضع مديحة الممسحة، تُجفف يديها المبللة في ثوبها، وهي تقترب منها لتسأل في فضول:

- خيرا!

حكت لها سعاد قصة الرسالة والتحقيقات، وانقلاب حال الشركة بحثًا عن صاحبها، لتظهر ملامح الدهشة والقلق على وجه مديحة، التي راحت تلطم خديها وهي تردد:

- يادي المصيبة، يادي المصيبة.

# (2)
# طارق

(أون ذا ران)

قلقي على جدتي ليلة أمس، أجهض كل محاولات نومي، وفي الصباح استقللت سيارة أجرة صوب التحرير، حيث تركت سيارتي بالأمس، ثم توجهت لاحتساء مشروبي الصباحي.

يناولني البائع كوب «النسكافيه»، أحمله لأقرب طاولة وأنا مشوّش تمامًا، ألتقط عبوة سكر وأفرغها في السائل البني، وبعد التقليب أُخرج سيجارة لأشعلها، وعلى هاتفي أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، أدخل إلى صفحتها، أطالع الصور والمقاطع المسجلة، أقرأ منشوراتها والتعليقات عليها، نظرًا لأحداث الأمس، لم يتسنَّ لي ممارسة تلك العادة المفضلة، الأمر أكثر تعقيدًا من مجرد فضفضة أو تفريغ لمشاعر إيجابية أو سلبية على مواقع التواصل الاجتماعي، بل كشف نفسي دقيق لصاحب الحساب، فقط لمن يجيد قراءة ما بين السطور وما خلف الصور، هنا مثلًا، هند صاحبة هذا الحساب، وحيدةٌ تمامًا، وإن ادّعت عكس ذلك، أحيانًا الإصرار على نفي شيءٍ ما يثبّته أكثر، وكما نحاول أحيانًا، إخفاء عيوبنا

ونواقصنا أمام الآخرين، نحاول أيضًا إخفاء لمحات من جمالنا، نخجل أن نُظهره أمامهم، جمال يحتاج فقط ما يستفزه، ليُعلن عن نفسه، وهذا ما حدث معها بالأمس، رُغم أني كنت - وكما هو الحال دومًا مع أغلب النساء لسببٍ أجهله- فظًا قليل الذوق، لكنها لم تدّخر ذرة مساعدة، أمام محنتي الصعبة.

قفزتُ لأعلى صفحتها ثم ضغطت على زر «قبول الصداقة»، ما إن فعلت حتى جاءني اتصال منها، أجبت لأجدها تسألني عن جدتي، أجبتُها:

- الحمد لله، أحسن كتير، في جديد؟

- آه، جيس وات!

وعندما فشلت في التخمين، أردفت:

- فاضي تعدّي عليَّ النهارده في الشركة؟

وفي المساء، أجلس بمكتبها، أراقبها وهي غارقة بين أكوام الورق، في الفترة الأخيرة تفرغت هي لأمر الرسالة فقط، أسندت مهام وظيفتها الأساسية لمساعدينها، وفضلًا عن تكليف رئيسها لتلك المهمة، فيبدو أنها اعتبرت الأمر بمثابة تحدٍّ شخصي، يظهر عليها الإرهاق بالفعل، الذي لمسته في عصبيتها الزائدة، وصوتها العالي، أمام كل من حولها،

وأيضًا إهمالها لشعرها الثائر فوق رأسها لأول مرة، كما عرفت أنها وتحت إشراف استشاري نفسي، قامت بمقابلة أغلب العاملين، للنقاش معهم حول أمور العمل، ومشاكلهم الشخصية داخل الشركة وخارجها، بغية الوصول لأي طرف خيط، قد يقودهم لاكتشاف صاحب الرسالة، طلبت من كل فرد على حدة، كتابة أي توصيات أو اقتراحات يراها قد تفيد في تطوير أداء الشركة، وإن كان هناك أي عقبات تواجهه داخل نطاق الشركة، وأكدت على حرية التعبير تمامًا دون قيد أو شرط، بل وتعهدت شخصيًا أمام الجميع بضمان الحماية الكاملة لكل من أطلق عنان نقده ضد سياسات الشركة، حتى ولو فضَّل عدم الإفصاح عن اسمه، لضمان استبيان أكثر موضوعية وصدق، الأمر الذي أسفر في النهاية عن كل تلك الأطنان من الورق، التي تحتاج سنوات لبحثها، وأيضًا تقريرًا من خمسين صفحة كتبه الطبيب، يؤكد أن لكل منهم دوافع تدفعهم للانتحار، كيف لم تلحظ إدارة الشركة يومًا كل هذا الكم من معاناة عامليها!

في النهاية، أوصت هند رئيس الشركة، بصرف مكافأة استثنائية للجميع، وفتح باب القروض بفائدة صفرية لكل من يقدم إثباتات لتعثره المادي، وبالفعل لم يتردد الأخير في الموافقة، خاصة بعد أن تسرب خبر الرسالة لخارج نطاق الشركة، حينما لمّحت إليه بعض مواقع التواصل الاجتماعي،

دون ذِكر اسم الشركة صراحةً، الأمر تحول لسباق مع الزمن، لإنقاذ سمعتها..

أنهيت فنجان قهوتي الثاني، وهي تخلع نظارتها قائلة:

- النهارده جاتلي واحدة من الكلينينج سيرفيس اسمها (مديحة).

- وبعدين!

# (3)

# هند

في العاشرة صباح اليوم، وصلت لمكتبي، لأُفاجأ بسيدة تنتظرني أمام بابه، ويبدو على ملامحها التوتر:

- صباح الخير أستاذة هند.

عرَّفتني بنفسها، اسمها مديحة، إحدى العاملات بالشركة، ثم طلبت التحدث معي على انفراد، دخلتُ المكتب لتتبعني، وفي الداخل سألتها عما ترغب في قوله، وبصوت خفيض مرتعش:

- أستاذة هند، أنا جاية لحضرتك في مشكلة، وواقعة في عرضك.

طبقًا للرواية كما حكتها مديحة، أنها في صباح أحد الأيام، وبعدما انتهت من كنس الأتربة بمكتب «الريسيبشن ديسك» تحديدًا، رفعت دلو الماء لتسكبه أرضًا، ثم شرعت في حصره بالممسحة، لتفاجأ بورقة على الأرض، وقد تبللت تمامًا، راحت تلطم خديها، ثم انحنت في محاولة لإنقاذ ما تبقى من الورقة، رفعتُها بحرص كمن يمسك قنبلة على وشك الانفجار، حاولت تبين المكتوب بها، لكن منه لله أبوها الحاج (عبد المتعال)، الذي انتشلها من المدرسة، قبل أن تُكمل تعليمها،

فهو وكما تراءى له، إن الست مالهاش غير بيت جوزها، ولا حاجة لها للتعليم، في النهاية حشرت الورقة أسفل إحدى التابلوهات لتجف، على أن تعود إليها بعد فترة قبل قدوم الموظفين، وتضعها أعلى المكتب الذي عثرت على الورقة أسفله، ظلَّ القلق ينهش قلبها، وهي تدعو الله ألا تكون ورقة ذات أهمية، راحت تتخيل التوبيخ والجزاءات التي قد تنهال فوق رأسها، وربما يصل الأمر لفصلها من عملها نهائيًّا، لم ينتزعها من قلقها هذا، سوى مكالمة أختها «شكرية» من المنصورة، وهي تولول تطلب نجدتها، تُخبرها بأنها استيقظت على صوت حشرجة أبيها وهو نائم، حاولت إيقاظه دون استجابة حتى ظنت أنه يحتضر، وفكرت «شكرية» كيف تتصرف وحدها بعد أن ماتت أمها، وسافرت أختها «مديحة» منذ سنواتٍ لتتزوج وتستقر بالقاهرة، بلغ بها التوتر، حتى راحت تصرخ طلبًا للنجدة من جيرانها، الذين هبوا لإنقاذ العجوز، اتصل أحدهم بالإسعاف بينما تعاون الآخرون في تبديل ملابس العجوز فاقد الإدراك، في حين احتضنت بعضُ النسوة «شكرية»؛ الفتاة المرتجفة، للربت على قلبها، حتى هدأت واستعادت جزءًا من توازنها، أعانها على الاتصال بمديحة، التي راحت تمارس هوايتها هي الأخرى، في اللطم والندب وإلقاء اللوم على عاتق أختها الصغيرة احتياطيًّا، حتى لو لم يكن لها يد في ذلك، ثم توجهت «مديحة» مسرعة

إلى رئيسها المباشر، تطلب منه السماح بإجازة قصيرة لزيارة أبيها، وافق على مضض برغم شكه في صدق روايتها، فهو اعتاد على سماع مثل تلك الأعذار، لكنه في النهاية، لا يتحمل اتهامه بقسوة القلب، ومع تسارُع الأحداث، تناست مديحة تمامًا أمرَ الورقة، قفزت في أقرب أتوبيس لمحطة القطار، وقطعت تذكرة إلى المنصورة.

# (4)

# طارق

أنهت هند ما حدث لمديحة، سألتُها:

- وأبوها عامل إيه دلوقت؟

صمتت لبرهة، وكأنها تقيِّم جدوى السؤال، ثم هزت رأسها:

- أي دون كير.

ساد الصمت لبعض الوقت، وأنا أفكر في أن تلك الرواية هي ما يفسر حالة الورقة الشبه بالية، وأن ما حدث صباح هذا اليوم مع مديحة هو الخطوة التالية لترك الرسالة، التي يبدو أن صاحبها ألقاها في اليوم السابق، لكن السؤال، لماذا لم تقع في يد أحدهم! أم من ألقاها واحدًا من العاملين بالمكتب!

- بتفكر في إيه؟

سألتني لأجيبها:

- أولًا عايزك تبعتيلي أكبر تسجيلات متاحة لكاميرات المراقبة، ثانيًا كنت بفكر في إن طالما الرسالة...

قطع كلامي رنة تنبيه من هاتفي، التقطته لأجد إشعارًا يخبرني بأن رقية أضافت صورة جديدة، فتحتها على الفور

لأجدها تقف مبتسمة وهي تحتضن زوجها.

# (5)

## هند

أروي له ماحكته لي مديحة العاملة، علّنا نفهم ما يحدث، فيعقب متسائلًا عن حالة أبيها الصحية، شخصية طارق تستحق الدراسة حقًا، لكن ما حدث بعد ذلك، أنه وأثناء انهماكنا في النقاش، قطع استرساله رنة هاتفه، طالع شيئًا ما، ثم ضيّق ما بين حاجبيه وشرد قليلًا.. سألته:

- طنط كويسة!

برهة من الصمت قبل أن يجيب باقتضاب:

- الحمد لله.

ودون تمهيد سابق هبّ واقفًا وسأل:

- تحبي نخرج!

لم أفهم، لكني أجبته دون تفكير:

- أحب جدًا، واي نوت!

# الفصل الخامس

# (1)

# هند..

***(ستاربكس)***

كانت الساعة تقترب من العاشرة، ظلَّ صامتًا لقرابة النصف ساعة، غارقًا في تفكير عميق، مشروبه كما وكأنه نساه، ونساني معه، قطعتُ الصمت:

- مالك؟

رفع رأسه ينظر إليَّ وبتردُّد سأل:

- أنساها إزاي؟

كما توقعت، قصة حب يعيشها هذا البائس هي سر شروده الدائم، حثثته على الكلام، انطلق يحكي ككاثوليكي يعترف بخطاياه، لساعة كاملة حكى مأساته مع رقية حتى لحظتنا الحالية، اعتدت مؤخرًا على سماع تلك المآسي ممن حولي، لكن أصحابها كنّ دومًا من النساء، لا العكس، هل ما زال هناك رجال أوفياء هكذا! ترى من تستحق أن يقاتل من أجلها رجل كما فعل طارق! جهاده للوصول إليها وما حكاه لي عجيب، أسرتني ذكرياتهما معًا، وحسرته البادية في كلامه، بعد صمت

متبادل بيننا سألته:

- طيب جربت تنساها وتعيش حياتك؟

- جربت كتير، لكن...

هز رأسه وهو يستطرد:

- مفيش فايدة.

- وليه كل اللفة دي عشان توصل لرقمها في الآخر! وإنت عارف إنك مش هتعمل بيه حاجة، واحد بدماغك دي، ليه ماحاولتش تهاك أكونتاتها؟.. طارق اسمعني، رقية مبقتش بتحبك، ورأيي الشخصي إنها ماحبتكش من الأول.

رفع رأسه يرمقني وضغط على أسنانه مستفسرًا:

- يعني إيه!

- يعني هي لقت فيك الونيس، اللي ملا فراغ حياتها وعوضها عن غربتها بسفر أهلها.

ضرب الطاولة بقبضة يده للدرجة التي جذبت أنظار كل من حولنا:

- أولًا تهكير موبيل مش بالسهولة اللي إنتي متخيلاها، ثم إنه مستحيل ده يحصل إلا بمساعدة صاحب الحساب نفسه،

وده يعتمد على مدى وعيه، ثم إنها لو شكت في أي محاولة تهكير لحسابها، هيهز صورتي قدامها، حتى لو مالوش علاقة بيا، لأني هكون أول شخص يجي في بالها، ومحدش غيري له مصلحة في ده، وبعدين أنا اتعودت أتعب في الحاجة اللي عايز أوصلها، لو جت سهلة بتبقى من غير طعم، إنتي مثلًا...

ابتلع لسانه في اللحظة الأخيرة، لكني فطنت لمراده:

- سكت ليه! جو أون! بس عايزة أقولك حاجة، ربنا سبحانه وتعالى قال الأقربون أولى بالمعروف، وبعدين أنا اشتغلت في مجالي اللي درسته، وضيعت فيه سنين من عمري وتعبت فيه، مش عشان خاطر صاحب الشركة يقربلي.

هدأت نبرته:

- أنا آسف.

- نيفر مايند، أنا مش زعلانة منك، أنا زعلانة عليك، عشان بتحارب في معركة خسرانة، وسامحلها تسيطر عليك، للدرجة اللي مخلياك شايفها في كل حد تقابله، ومش بعيد تكون بتراقبك هي كمان وبتضحك.

شعرت بقسوة كلماتي، فحاولت إزالة التوتر وتغيير مجرى الحديث، سألته:

- إيه بقى سر الكاميرات اللي إنت مركّبها في الشقة دي؟

زاغت عيناه لثوانٍ قبل أن يرفعهما نحوي مترددًا، قبل أن يخبرني بأغرب ما سمعته على الإطلاق.

حكى لي عن الطائف، قال إنه طوال سنوات عمله على تقنيته، كان حرصه الدائم على تطويره لأبعد من كونه مجرد وسيط لمحاكاة الماضي، بل وتغيير تفاصيله ما استطاع إليه سبيلًا، لكن كان جلّ ما واجهه من مشكلات، هي ندرة المدخلات لبعض الشخصيات، وتمنى لو ملك الكافي منها، تحديدًا فيما يخص رُقية ووالديه، لربما كان من الوارد أن يكون معهم الآن، يستمتع برفقتهم بمشاهدة مسرحية أو فيلم، وهذا كان شغله الشاغل، منذ أول يوم شرع في ابتكار اختراعه، سعى لتوفير أكبر قدر من تلك المدخلات، تفاديًا لتلك الثغرة، ومن منطلق إدراك ما يمكن إدراكه؛ قرر تثبيت «كاميرات» ومستشعرات صوت، في جميع أنحاء المنزل لتحوط - على حد وصفه- آخر مبررات بقائه؛ جدته، أقنعها بأن هذا مجرد إجراء ضروري، لتمكينه من الاطمئنان عليها أثناء غيابه خارج المنزل، وبالتالي إنقاذها إذا ما ساءت حالتها الصحية فجأة، في البداية لم تفهم، لكنها لم تعترض، إلا أن وجود «الكاميرات» سبَّب لها بعض الحرج والتقييد، والشعور بأنها تعيش تحت مراقبة دائمة، كثيرًا ما لاحظ

طارق هروبها من الجلوس أمامها، وحرصها على التحدث بصوت خفيض، فيطمئنها، فتطمئن، لكن سرعان ما تعود لتحفّظها مرة أخرى، لكن مع مرور الوقت اعتادت الأمر حتى تناست وجودها تمامًا.

# (2)

# هند

ساعة ونصف هي الأغرب في حياتي على الإطلاق، حكى لي كل شيء تقريبًا، لم أقاطعه ولم يتوقف عن الكلام، كمن عثرَ على من يسمعه بعد سنوات عاشها وحيدًا بجزيرة للصم، وفاة أبويه، رقية، جدته، جهاز محاكاته، وأحداث كثيرة لا يقوى عقلي على استيعابها، لكن صدّقها قلبي، منفيٌ بين جدران حزنه على من رحلوا، وحنينه لقلب خذله، ورعب فقده لأحبة آخرين، أرى أن طامته الكبرى، في تعلُّقه بحبيبة مؤكد لا تدري عنه شيئًا، يحتاج قلبه لصدمة قوية لقبول حقيقة أنها راحت دون عودة، هدأت ملامحه ثم عاد ليقول:

- على فكرة أنا افتكرت شُفت نَص رسالة الانتحار فين قبل كده؟

- فين؟

أخرج هاتفه وأراني صورةً لتلك الورقة، لولا يقيني بإني أحتفظ بها في درج مكتبي الخاص لظننت أنها هي ذاتها

- لقيتها بين حاجات جدتي محتفظة بيها.

اندهشت وأنا أسأله:

- سوري، بس وصلت لجدتك إزاي؟

هز رأسه في حيرة:

- ما أعرفش.

أشرت إلى أنها قد تكون رسالة مقتبسة عن أحد المشاهير وتناقلها الأشخاص، لكنه هز رأسه نافيًا وهو يوضح، أنه قام فعلًا بالبحث عبر «الإنترنت» ولم يجد ما يشير لذلك، سوى الجملة الأخيرة المُحرفة، عن إحدى الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري.

صمت لبرهة، ثم سأل عمن له صلاحية دخول الشركة ليلًا بعد رحيل العاملين بها؟

- السيكيورتي طبعًا، شاكك في حاجة؟

- أعتقد حل لغز الموضوع كله يكمن في الساعات اللي بين قفل الشركة ليلة اكتشاف الرسالة، وفتحها تاني يوم، خصوصًا إنك قولتي إن كاميرات المراقبة اتعطلت لمدة ساعتين تقريبًا.

كلام منطقي، فبالرغم من إن تعطل «الكاميرات» حدث من قبل، ومرَّ الأمر بسلام، إلا أنه خلّف تلك المرة استفهامات، نبحث لها عن إجابات. في النهاية طلب مني حصرًا لأسماء

العاملين بمكتب «الريسيبشن ديسك»، وكذلك أسماء المتواجدين ليلًا من طاقم الأمن، وافقته ثم سألت:

- ممكن تحكيلي أغرب رحلة خضتها بالطائف؟

ضيّق عينيه وهو يفكر، ثم ابتسم وقد تذكر شيئًا ما، وقال:

- كانت رحلة أسمهان.

- طب احكيلي.

# (3)

## 14 يوليو 1944

مدينة طلخة تحديدًا بالقرب من ترعة الساحل.

أقف متواريًا خلف إحدى الأشجار، في انتظار ظهور السيارة التي تُقلها، وكسرًا لملل الانتظار، رحت أسترجع ما ذاكرته قبل خوض الرحلة، بحسب ما وردَ في كُتب مؤرخي الحادثة، أنها استقلت السيارة الباكارد، التي فقدت توازنها، لتنحرف ناحية الترعة وتغرق، أفكر في طريقة لإنقاذ أميرة الجبل، آمال، التي حوّلها المجد لأسمهان، كان الملحن داوود حسني أول من تنبأ لها بهذا المجد، فكان داوود صاحب اختيار اسم أسمهان، أسمهان التي كانت اكتشافه الأول في الغناء، والتي وافتها المنية في سن صغيرة أيضًا، فأخذت آمال، سليلة عائلة الأطرش، عنها اسمها، لكن يبدو أنها لم تقتبس عنها الاسم فقط، بل ومصيرها أيضًا، علت أسمهان قمة المجد بسرعة البرق، والذي كان سببًا للعنتين لحقا بها، الأولى في حياتها، حينما هدَّد نجاحها عروش عمالقة، تسيدوا هذا الزمن تحديدًا، وعلى رأسهم كوكب الشرق أم كلثوم، الأمر الذي دفع بعضهم لتدبير المكائد لها، لإنهاء حياتها كما ذكرت بعض المراجع، أما عن اللعنة الثانية، فكانت بعد مماتها، حينما أصر يوسف وهبي التمثيل بجثتها

الحقيقية، فاستعان بجثمانها في تصوير مشهد تغيير الأحداث بفيلمها الأخير، الذي رحلت قبل أن تستكمله.

كما اطلعتُ، فإنه من المفترض أنها تعرضت لمحاولة إطلاق النار في مشاجرة مع زوجها، المذيع أحمد سالم، لكنها نجت بإعجوبة في اللحظات الأخيرة، الأمر الذي اضطرت معه لإيقاف تصوير فيلمها، والذهاب في رحلة استجمام مع صديقتها ميري إلى رأس البر، المقدَّر لها اليوم تحديدًا، وهو اليوم الذي توفت فيه بعد أن قفز بالسيارة سائقها، ليفر هاربًا للأبد دون أي أثر يُذكَر، في كل الكتب والمراجع..

أصابت الشمس رأسي بألمٍ، نقلت بصري بين الطريق غير الممهد، وساعة يدي التي لا أدري، إن كان توقيتها يواكب اللحظة الراهنة أم لا، ترى هل سأتوصل لمن هو وراء قتلها، أم أن الأمر سيبقى غامضًا للأبد، وماذا عن سائق السيارة الذي قفز منها في اللحظات الأخيرة وكيف اختفى!

على العموم، في حالة فشلي في إنقاذ السيارة، يكفيني على الأقل تتبعه ومحاولة كشف مُحرضه، يعلو سقف خيالي تساؤل، وماذا لو نجحت مهمتي في إنقاذ حياتها! هل سأعود لعالمي الزمني، وأكتشف أنها واصلت طريق المجد مرة أخرى! لتخلف تراثًا أعظم! أم سأجدها اكتفت بما وصلت إليه واعتزلت، وعادت لزوجها السابق وتنهي خلافاتها وتسطر

معه صفحة جديدة!

وبينما أقف أفكر في كل ما سبق، يقطع تصارع أفكاري صوت بوق سيارة قادمة، ألتفت فأجد السيارة الباكارد تشق الطريق، مثيرة عاصفة رمال من خلفها، كيف أوقفها لتفادي السقوط في الترعة، وهل سيسمح سائقها - إن كان حقًا مشاركًا في الجريمة- بذلك، لكن المفاجأة غير المتوقعة التي حدثت، هي توقُّف السيارة فجأة وأمامي تحديدًا، في البداية لم أتبين ملامح قائدها من الأتربة، التي ما إن هدأت، حتى أبصرت سائقها، أسمهان بنفسها، تجلس أمام المقود، وبجانبها تجلس صديقتها ميري، تمسك الأخيرة بسيجارها في تعالٍ، وبابتسامة لم أشاهد سحرها من قبل تطلب مني الاقتراب، ورغم أن ما حدث في صالح مهمتي تمامًا، إلا أني دنوت من السيارة في تردُّد، وكلي اندهاش، ماذا تريد أسمهان من شخص مثلي!

قرأت قلقي، فطمأنتني وهي تسألني عن المنعطف المؤدي لطريق رأس البر، أشرت بإصبعي للأمام، إشارة لا تعني شيئًا على الإطلاق، إشارة تحتمل عدة مقاصد، وللحق فلم أكن أدري بالفعل أي المنعطفات تصلح، ولم أكن مستعدًا لسؤال كهذا، لكن كأي مصري أصيل، من المستحيل الاعتراف بأني «معرفش والله».

زادها جوابي حيرة لتعرض عليَّ عرضًا لا يرفض:

- ممكن تيجي معانا لو وقتك يسمح؟

بلا تردد تلك المرة، قفزت لفتح باب السيارة الخلفي، لكني لم أجد مقبضًا، دخول تلك السيارة يتم فقط من خلال الباب الأمامي، بعد طي الكرسي على غرار «ميكروباصات» خط الهرم جيزة، بتأفف فتحت صديقتها بابها ثم نزلت تنظر إليَّ بنفاد صبرٍ، دفعت المقعد للأمام ليسمح لها بالعبور للأريكة الخلفية الضخمة، وبعد أن استقرت، أعدتُ المقعد لمكانه مرة أخرى، وقفزت للجلوس عليه، وما إن أغلقت الباب حتى انطلقت، لو أخبرتُ أحدهم أني جلست بجانب أسمهان في سيارة باكارد لاتهمني بالجنون، على أي حال لا أكترث الآن سوى باللحظة التي أعيشها، في الطريق وعن قرب استطعت استراق بضع النظرات، تقود وهي تقبض بيديها الرقيقتين على المقود، مع عدة لمسات متكررة تعدّل بها وضع الشابوه الوردي المهتز، إثر اهتزاز السيارة العنيف فوق الطريق غير الممهد، ترتدي فستانًا من ألف ليلة وليلة، هل شاهدت عرض (الجميلة والوحش) من قبل!

هذا هو باختصار ما أراه الآن، مع الفارق أن الوحش هنا هي المركبة الضخمة، التي تحاول تلك الزهرة ترويضه، التقطت أذناي دندنة من الخلف لأغنية «ياحبيبي تعالى الحقني

شوف اللي جرالي» التي يبدو أنها رسالة تبعث بها الصديقة لصديقتها، تعبر بها عن الورطة التي يعشنها، مع عابر سبيل غريب الأطوار مثلي، بينما في الأمام ساد الصمت لدقائق قبل أن ألاحظ نظرات دهشة الأميرة تجاهي، فعرفت أنها تتعلق بملابسي، التي تبدو بالطبع غريبة عن تلك الحقبة، لكنها لم تتحدث عن الأمر بأي حال، طال بنا الطريق لأجدها تتوقف فجأة وبنفاد صبر صاحت:

- أنا تعبت، اتفضل سوق.

ودون انتظار رأيي فتحت باب السيارة وغادرتها لتبديل المقاعد، لأجد نفسي في الأخير، أُمسك بالمقود وأنطلق بالسيارة، بينما انخرطت هي في توبيخ سائقها الغائب، الذي اعتذر عن الحضور في اللحظات الأخيرة، والذي وضعهما في موقف صعب كهذا - ولسان حالي يضيف- ومع غريب مثلي بتصفيفة شعر غريبة وملابس رثة، في بداية الأمر، شعرت ببعض الصعوبة في التحكم في المركبة، اندهشت، كيف لفتاة رقيقة مثلها، السيطرة على ذلك الشيء المتحجر العصي، قيادة تلك السيارة مرهقة حقًا، خاصةً وأن ناقل السرعات، «الفتيس»، يختلف كليًا عن المتعارف عنه في زمني الأغبر.

انشغلتُ بمحاولة نقل «الفتيس» للسرعة الأعلى، ولم ألحظ الحفرة العميقة التي ظهرت فجأة أمام السيارة، ومع صراخ

السيدتين المحذّر، لويت المقود لتقفز السيارة وتسقط في الترعة بقوة، ومن خلال النوافذ بدأت المياه في التسلل للداخل، ومن أسفل أيضًا، جاهدتُ لفتح الباب، لكن كانت مقاومة الماء أكبر مني، بالكاد ألقيتُ بجسدي للخارج من النافذة المجاورة، في اللحظة التي راحت المركبة تغوص أكثر، حتى اختفت عن ناظري، سبحتُ، حتى وصلت لحافة الترعة، لأتسلقها وأستلقي على اليابسة أخيرًا، ألتقط أنفاسي وأنا أراقب فقاعات الهواء الصادرة عن السيارة.

غرقت المسكينة في الماء، تمامًا كما ولدت فيه، خرج عدة أطفال من بين الأشجار تجاه الترعة، وتجمع أهالي المنطقة من كل حدب وصوب، في محاولة لإنقاذ السيارة الغارقة، وبأنفاس لاهثة استجمعت قوايا للوقوف والهرب قبل الفتك بي، لم يكذب المؤرخون حينما ذكروا أن وراء مقتل أسمهان سائق سيارتها، لكن لم يدروا أنه كان الشخص الأكثر حرصًا على إنقاذها، هو فقط كان أبلهَ، من عالم آخر لا يجيد قيادة سيارة كتلك.

# الفصل السادس

# (1)

# (البداية)

***11 يناير 2021***

***التاسعة مساءً..***

***قهوة السعداوي بالحلمية..***

يجلس ثلاثة أصدقاء على طاولة، انهمك اثنان منهم في لعب الكوتشينة، بعد برهة من التفكير وبحركة استعراضية، شهر أحدهما آخر أوراقه على الطاولة، وقد لاحت على وجهه ابتسامة نصر، قبل أن يستوي على مقعده عاقدًا قدمًا فوق الأخرى، ثم أمسك بلي الشيشة وسحب نفسًا طويلًا، وهو يراقب قسمات وجه منافسه في تشفٍّ، ويبدو أن الثاني وبعد تفكيرٍ أطول، قد فقدَ الأمل في إيجاد مخرج، فقذف بما تبقى لديه من أوراق بقوة في وجهه، متهمًا إياه بالغش، أطلق الأول ضحكة مجلجلة سعل على إثرها وهو يقول:

- إنت اللي هاوي يا بقف.

ثم ألتفت لثالثهما المعتزل، ونغزه بفوهة لي الشيشة قائلًا:

- ماتيجي يا رشدي أطرقعك دورين إنت كمان، ولا خايف تدفع؟

ضحك المغلوب متناسيًا مرارة هزيمته قائلًا:

- سيبه يا عم، ده بيموت عالقرش، تلاقيه مكنّزهم على قلبه قدّ كده، ده إحنا بقالنا ساعتين قاعدين ماهنش عليه يطلب كوباية مَيَّه حتى.

دسَّ (رشدي) هاتفه في جيبه كمن يتأهب لصراع منتظر، ثم صاح:

- على الأقل أنا بموت على القرش عشان بشتغل وبيطلع عين اللي خلفوني لحد ما أمسكه..

نقل بصره بينهما وهو يستطرد:

- مش زي ناس صيّع، بيقلّبوا أبوهم وأمهم عشان يقعدوا عالقهوة ليل نهار.

انتفض أحدهم ليقبض على ياقة قميصه قائلًا:

- إنت يله مسمي وقفتك في السوبر ماركت ده شغل، ده أنا كل ما أعدي من قدامه مابشوفكش ياحيلتها، شكلك ضربت الطقم بتاعهم وخلعت.

دفعه رشدي ليبعده، أطلق سبة قبيحة، استشاط على إثرها

غضبًا، فتيقن بأنه قد أحرز هدفًا، ثم نهض وأسرع ليبتعد عنهما، معلنًا نهاية المباراة.

عادة، يقطع رشدي، المسافة بين ميدان الحلمية وعزبة النخل حيث يسكن، مشيًا على الأقدام، وحينما يصيبه التعب كان يقفز داخل أي أتوبيس ويلزم بابه، إلى أن يطالبه المحصل بثمن تذكرته، فيفر هاربًا ويلحق بآخر، يسأل راكبيه عن أي وجهة مختلفة عن وجهة الأتوبيس الفعلية، ليجيبوه بالنفي، وبمقدار الوقت المستغرق بين السؤال والجواب، يكون قد قطع مسافة لا بأس بها من طريق عودته، وهكذا، وصل أخيرًا لمنزله المتهالك ذي الثلاثة طوابق بحارة السد، حيث يقطن بشقة مشتركة مع بعض المغتربين أمثاله، ويشارك إحدى الغرف الضيقة مع شاب لا تختلف ظروفه عنه كثيرًا، جاء رشدي منذ سنوات إلى القاهرة بحثًا عن الوهم المعتاد، الذي يعتنقه أغلب الريفيين، المكانة المرموقة ورغد العيش، انقطع تمامًا عن أهله، لم يسمع من أخبارهم شيئًا من حينها، وتراخوا هم أيضًا عن محاولة التواصل معه، وكأن مهمتهم في التربية انتهت عند هذا الحد، وحان موعد مهمة جديدة في التخلص من أحد إخوانه الخمس الآخرين، وبفضل تفوقه الدراسي في كلية التجارة، نجح في التنقّل بين فرص عمل متعددة، لكن دائمًا ما كانت تعيق طريقه طباعه الريفية، التي لم تنجح القاهرة في انتزاع

جذورها من صدره، رغم وسامته البادية، تدرّب كثيرًا على إخفائها لكن كما يقولون، الطبع غلّاب، تدريجًيا فقد الأمل في الزواج وتكوين أسرة، حتى سلّم بفكرة العيش وحيدًا، لكنه كأي رجل، يملك بين فخذيه ما يؤرق مضجعه، وكانت تلك مأساته.

مع الوقت وبالممارسة، تدرّب على استبدال لهجته الريفية بأخرى قاهرية، فتجده يتحدث بلهجة العاصمة وكأنه ولد وعاش في فيها.

اجتهد حتى نجح بالكاد في شراء هاتف بشاشة كبيرة، في أحد مواسم التخفيضات، من أحد محال الهواتف التي عمل بها من قبل، وعن طريق أحد برامج سرقة «الإنترنت» راح يجوب عوالم الإباحية حتى أدمنها، يدخل لدورة المياه، وما يلبث فيها بضع دقائق، حتى يغادرها رخوًا وقد خمدت نار شهوته، وكأنه أفرغ مع سائله أحلامه وطموحاته..

تلك الليلة.. خرج من دورة المياه ليجد شركاءه في السكن، مجتمعين حول ما تيسر من الأطعمة لتناول العشاء، يدعونه لمشاركتهم، دعوة باردة بلا حماس، يشكرهم باقتضاب، ثم يدخل غرفته لينام، يرقد في سريره لما يقرب من الساعة، شاخص البصر نحو السقف وقد جافاه النوم، تتردد جملة صديقه الساخرة في عقله كصدى لا ينقطع.. «سيبه ياعم، ده

بيموت عالقرش».

يتساءل عن الضرر الواقع عليهم من حرصه الزائد، ربما يكون فقيرًا، لكنه على الأقل لم يمد يده يومًا لأحدٍ من قبل، فما يعنيهم في كونه حريصًا!، يعلم في قرارة نفسه أن حياته البائسة تضطره لذلك، لكنه أيضًا يعترف بقرارة نفسه، بمبالغتة في حرصه هذا، وخوفه من الحسد، زرع فيه فقره الوساوس والأوهام، وعلّمه أن من يداري على شمعته تظل متوهجة، يضحك في بؤس ولسان حاله يتساءل: «وإنت حيلتك إيه يتحسد!!».. عاش سنوات غربته لا يدري أحدٌ عنه شيئًا..

ذات يوم وأثناء تفقده لأحد المواقع، ظهر له إعلان عن تطبيق للتعارف، أنشأ حسابًا من باب التجربة، فكَّر فيما لو انتقل من مرحلة مشاهدة الأفلام، إلى مرحلة أكثر سخونة، من البث الحي المباشر، مؤكد ستكون المتعة مضاعفةً، غرق بين الصور المعروضة لصاحبات الحسابات المختلفة، وأسفل كل صورة سيرة ذاتية مختصرة لكل واحدة منهن، الطويلات والقصيرات، البدينات والنحيفات، ذوات الشعور السوداء والمصبوغة، وحتى المحجبات والمنتقبات، فتيات يحلمن بالزواج، نساء مطلقات يسعين خلف استعادة ثقتهن المهدرة، بعد زيجات فاشلة، أرامل يبحثن عن كفيل لأبنائهن.

تسير خطته في إيقاع ضحاياه بالتدريج، يبدأ بالحديث عن نفسه وعن أصوله، وتجنبًا لمقابلة مباشرة، قد تكلفه ماديًا، فضلًا عن احتمالية فضح طباعه الريفية المنبوذة، يقدّم نفسه على أنه محاسب، ويعمل بإحدى الدول العربية، وينوي العودة قريبًا لأرض الوطن، لاختيار شريكة الحياة المستقبلية، يرسل بعض صوره، التي التقطها بأماكن راقية، متجنبًا أي لافتات أو علامات تظهر بخلفيتها، قد تشي بموقع تلك الأماكن، يبدأ التعارف بالحديث عن الأشياء المشتركة وطباع كل واحدٍ منهما، والصفات الأخلاقية الواجب توافرها في شريكة الحياة، وصولًا للمواصفات الجسدية المفضلة، التي يصحب الكلام فيها، طلب بعض الصور الشخصية الخاصة جدًّا بالطبع، والمبرر أن الصور العامة غير كافية لإيضاح ذلك، ولكي يطمئن قلبه، فلا بُدَّ من رؤية صور ومقاطع مصورة أكثر تحررًا لزوجته المستقبلية، الأمر الذي يجد أمامه بعض الرفض، لكن سرعان ما يزول أمام زنه، وخوف الضحية من فقدان تلك الفرصة الذهبية، بالفوز بفتى الأحلام الذي تتمناه أي أنثى، ثم بعد تحقيق مراده، فجأة وبدون سابق تمهيد..

اختفاء تام، لإعادة الكرة، والبحث عن فريسة جديدة..

اهتز هاتفه، فيعود لواقعه، التقطه ليطالع رسالة جديدة من

تطبيق التعارف تقول: «مساء الخير».

ضيَّق عينيه وردَّ التحية، فتح الصفحة الشخصية للاطلاع على تفاصيل صاحبة الحساب، (ندى)، مطلقة، عمرها خمس وثلاثون عامًا، تهوى السفر والقراءة ومشاهدة الأفلام، انتقل إلى ألبوم صورها، ليجد صورة لامرأة ذات ملامح رقيقة، ترتدي بلوزة تكشف عن أعلى شق صدرها، تنظر إليه بابتسامة خافتة، وعينين تقولان الكثير، اتسعت عيناه عن آخرهما، وكذلك ابتسامته.

# (2)

# طارق

***السابعة صباحًا***

***كومبوند ويست بارك***

على أنغام عمر خورشيد، أجلس بالسيارة في انتظار اللا شيء، تتعلق عيناي ببوابة البناية، صار هذا الطقس مؤخرًا يبعثُ في قلبي سلامًا غريبًا، أوقن وإن كانت عيناها لا تريانني، أن روحها تشعر بي، حاولت استرجاع ملابسات فراقنا، لكن الغريب أن ذاكرتي لم تسعفني، وكأن حبي لها محا كل الذكريات الحزينة، سما بها لمرتبة ملائكية لا تشوبها شائبة، ومن خلف آلاف الصور والمشاهد، قفزتْ ذكرى ذاك اليوم تحديدًا، ولا أدري سببًا محددًا لذلك، لكني شعرت وكأني هناك، أجلس أمامها وتنطق شفاهي ذات الكلمات مرة أخرى.

في المقهى القريب من الجامعة، حيث اعتدنا اللقاء، كانت المقابلة أشبه بعودة الروح لكلينا، جلسنا إلى الطاولة التي تتيح لنا أكبر قدر ممكن من الهدوء، في ذلك الوقت من اليوم، تحديدًا، حيث يحتشد بالطلبة، ذوي ضجيج الأحلام المكبوت، كان لقاءً بعد صيام أربع وثلاثين يومًا، قضتهم

رقية مع والديها، في رحلة عمل بتركيا، دقائق من الصمت، تبادلت أعيننا فيهم الكثير، سحبت يدها برفق من بين يديَّ، أخرجت من حقيبتها تمثالًا معدنيًّا لحصان يلمع بلون الذهب، ثم أهدتني إياه، أمسكته وبدأت أتحسسه، وقد أنار انعكاس شعاع الشمس المتسلل من إحدى النوافذ، وجهي ببريقه الذهبي، قالت:

- مانستكش لحظة، كنت فاكرة إن لما هبقى معاهم هنبسط، بس بالعكس، بقيت بحس بغربة أكتر، أو يمكن اتعودت على الإحساس ده.

- حمد الله على سلامتك، وحشتيني.

- كان نفسي تبقى معايا.

قالتها ثم ابتسمت وأردفت:

- وخصوصًا في الطايف

قرأت تساؤلي لتفسر:

- في ملاهي في تركيا زرناها، فيها لعبة اسمها «الطايف»، بتلف بينا في مدينة أثرية قديمة، حسيت إني في عالم من عوالم ألف ليلة وليلة، واتمنيت لو كنت معايا وحاضني ونعيش هناك عمرنا كله.

وضعت التمثال جانبًا ثم احتضنت يديها وقلت:

- أوعدك هيحصل.

# (3)

# طارق

***مساءً..***

***بمقر الشركة..***

في غرفة ذات حوائط زجاجية، خُصصت لعقد الاجتماعات، وأمام مكتب خشبي ضخم مستدير، تجلس هند عن يميني، تنقر بظفر سبابتها سطح المكتب، وهي تطالع أحد الملفات، بينما أنا أحاول تقمص دور المحقق الخاص، في أحد الأفلام الأمريكية المستهلكة، يجلس أمامي من الجهة المقابلة، رجلا الأمن المسؤولان عن نوبة الحراسة الداخلية، ليلة ظهور الرسالة، أما عن يساري يجلس عقيد شرطة متقاعد (حسين عباس)، مدير الأمن، عاقدًا ساق فوق الأخرى، ينظر للجميع بنظرة تشكك، تُجبر حتى البريء على الاعتراف بجرم لم يرتكبه.

التقطت سيجارة، رمقتني هند بنظرة حادة أجبرتني على التراجع، لترقد داخل علبتها مرة أخرى، بدأ العقيد حسين بالكلام، قدَّم إلينا الرجلين، الأول يدعى (ماهر) رجل أربعيني، يجلس مُشبكًا ذراعيه بين فخذيه في توتر، ينقل بصره بين ثلاثتنا، ثم يطيل النظر أكثر لعباس في

توتر، التفت لزميله الثاني (رضا)، مُطرق الرأس، بينما أرخى ذراعيه بجانبيه في صمت، غير مبالٍ بما يحدث حوله، وكأننا غير موجودين، ربت ماهر على يده، انتبه وهو يعتدل في جلسته رافعًا رأسه نحونا، رجل يبدو في سن متقارب من زميله أيضًا، بعيون ذابلة بدا عليهما الإرهاق وبصوت خفيض رحَّب بنا:

- تحت أمركم.

واصلت هند انشغالها مع هاتفها، وكأنها لم تسمعه، قامت ثم اتجهت لإحدى الخزائن، التقطت منه ملفًا، ثم عادت لتجلس وتناولني إياه، قرأت تساؤلي، أجابتني بأنه تقرير آخر للسير الذاتية، خاص بالعاملين بمكتب «الريسيبشن ديسك»، بدلًا مما فقدته ليلة مرض جدتي، ومرفق معه أسطوانة مُخزن بها تفريغ «كاميرات» المراقبة الذي طلبته من قبل.

ثم بطريقة آلية وضعت الهاتف على الطاولة، عقدت ذراعيها فوق صدرها، ثم طالبتهما بسرد ما يتذكران، من أحداث يوم الثالث من مايو تحديدًا، قالا بأنه لم يقع شيء غير مألوف، وأن الأمور سارت بشكل طبيعي كما يحدث كل ليلة، ولا وجود لأي أمر لافت للانتباه أو غير معتاد، سألتهما عمن قام باستلام المكاتب من طاقم النظافة بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية، رفع ماهر يده:

- أنا يا افندم.

ألقى عباس نظرة سريعة على ملف أمامه، ثم عقب بنبرة مستنكرة:

- بس يوم 3 مايو، رضا موقع معاك على استلام النوبة دي يا ماهر.

التفت الأخير لزميله، قبل أن يعتدل ليواجه رئيسه بصوت مرتعش:

- رضا حصلّه ظرف يومها ووصل متأخر يا عباس بيه.

اعتدل عباس في جلسته، ثم عقد ذراعيه وهو يرمقهما بنظرة حادة متوعدة، واكتفى بكلمة «تمام»، ثم طالبهما بالانصراف، همّا بالوقوف لولا أن استوقفهما صوت هند:

- اكسكيوزمي، ممكن أعرف أتأخرت ليه يومها؟

تبادل الرجلان النظرات القلقة، أجاب رضا:

- أنا شغال بالنهار في هايبر، واتأخرت ليلتها عشان كان عندنا شغل كتير.

صاح عباس:

- أنا قولتلك قبل كده ماليش علاقة بشغلك التاني، إنت

طالما شغال معايا يبقى تلتزم، وألاقيك هنا قبل الميعاد، ودي مش أول واقعة تأخير ليك، وكل مرة توعدني إن شغلك في الهايبر ما يأثرش على التزامك، لكن واضح إن مفيش فايدة.

اعتذر له رضا، بينما راح عباس يهز رأسه رافضًا، ثم صاح في وجهه:

- سلم اليونيفورم والعهدة بتاعتك، ومش عايز أشوف وشك هنا تاني.

تدخل ماهر:

- لو تكرمت يا عباس بيه تديله فر...

- وإنت كمان مرفود.

انفجر رضا في وجهه ملوحًا بذراعه:

- طب وهو ذنبه إيه؟ أنا الغلطان..

برهة من التردد قبل أن يردف بصوت خفيض:

- أنا هحكيلكم اللي حصل بالتفصيل، ورزقي على الله..

# (4)

***3 مايو 2021..***

***العاشرة مساءً..***

يجلس ماهر على المكتب المخصص لأفراد الأمن ببهو الشركة، وعيناه تتأرجحان بين ساعته ومدخل الشركة، في انتظار رفيق ورديته الليلية، رضا، الذي تجاوز ميعاد حضوره بساعة كاملة، منذ التحق الأخير بالعمل في هايبر لبيع مستلزمات الأسرة، صارت مواعيده غير منتظمة، ابنته التي تدرس في المرحلة الثانوية المُتخمة بالدروس الخصوصية، زوجته صاحبة المتطلبات التي لا تنقطع، الفيروس الذي ضرب وظائف كبده، وكبّده ثروة من الأموال، أنفقها على الأطباء والتحاليل والأشعات، كل تلك الأسباب دفعته للبحث على وظيفة إضافية، يعينه عائدها على زيادة دخله لسد تلك الأفواه المفتوحة، لكن لكل شيء ضريبة، الوظيفة الثانية كانت، ودون إرادة منه، تظلم الأولى، الأمر الذي كاد أن يتسبب لأكثر من مرة، في اشتعال غضب اللواء عباس، كما يحب أن يلقبه العاملون؛ بالرغم أنه لم ينل اللوائية حتى تقاعد.

في تلك الليلة، انصرف عباس مبكرًا على غير عادته، قبل

موعد تسجيل تمام الوردية الليلية، وهذا من حسن حظ رضا، الأمر الذي أتاح لماهر التوقيع على استلام الوردية بدلًا منه، حتى لا يتعرض للطرد، الذي هدده به عباس في آخر واقعة تأخير، أخيرًا حضر رضا غارقًا في عرقه يحمل شنطة سوداء كبيرة، وضع حمله ثم دنا من ماهر يسأله هامسًا:

- إيه الأخبار؟

- ماتقلقش كله تمام، غار بدري النهارده، بسرعة بقى غير اليونيفورم قبل ماينطلنا في أي لحظة.

هرع لغرفة الأمن وبدّل ملابسه، ثم عاد يجر قدميه في إنهاك وهو يشمر كمي قميصه، ثم ألقى بجسده على المقعد أمام زميله وأراح رأسه فوق كفه، سأله ماهر عن سبب تأخيره، أجابه بأنه كان على موعد استشارة مع طبيب الكبد:

- وإيه الأخبار طمني!

طأطأ رأسه قائلًا:

- واضح إن مفيش فايدة يا ماهر، صدّع دماغي بكلام كتير، بس خلاصة اللي فهمته، إن الفيرس اتمكن مني.

ربت صديقه على كتفه:

- يا ابني الفيرس ده عادي جدًّا، وناس كتير اتعالجت منه

والله، مش عايزك تيأس من رحمة ربنا.

- أنا مش فارق معايا نفسي، أنا حامل هم العيال.

- قول يارب بس، والله هتفرج، ده مش كلامي، ده كلام ربنا.

- ونعم بالله.

أشار ماهر للشنطة وهو يسأله:

- إيه اللي إنت جايبه ده؟

- الهايبر عندنا كل فترة بينزل منتجات بنص التمن للموظفين، بتبقى فيها عيوب بسيطة مش باينة، جبت مروحة للولية، بدل ما هي قاعدة مشلحة هدومها 24 ساعة.

ضحك ماهر ووكزه وهو يقول:

- دلوقتي التشليح بقى وحش!

ابتسم رضا بوهن وهو يقول:

- يا ابني الوضع دلوقتي اختلف، العيال كبرت، غير أبويا اللي من ساعة ما تعب وبقى مقيم عندي.

أطرق ماهر رأسه، محا الأسى الذي استشعره في كلمات صديقه، ابتسامته، بينما أنهى رضا جملته الأخيرة، ثم همّ

واقفًا، اتجه لحجرة صغيرة جانبية، بادره ماهر:

- بلاش يا رضا، مش كل مرة هتسلم الجرة.

- ياعم ما تقلقش، هتعدي زي ما عدت قبل كده، هيحصلي إيه يعني أكتر من اللي حصللي!

نطقها وهو يعبث بأزرار التحكم في «الكاميرات» لإيقاف عملها، وضغط على زر آخر مسؤول عن توصيل الكهرباء لإحدى الغرف المغلقة، عاد ليحمل مروحته الجديدة، ثم توجه لمكتب «الريسيبشن ديسك»، أخرج سلسلة مفاتيح، انتقى منها واحدًا، فتح بابه ثم دلف ليغلقه خلفه من الداخل، أدار المكيّف، تمدد فوق الأريكة الجلدية الوثيرة، ثم خطرت بباله فكرة، نهض وأخرج المروحة ليجرّبها، وضعها فوق أحد المكاتب، دسَّ قابسها في أحد المشتركات، ثم ضغط على زر تشغيلها، عاد وهبد جسده فوق الأريكة مرة أخرى، نسيم التكيف البارد امتزج مع هواء المروحة القوي، فزاد ثقل جفنيه أطنانًا.. لم يحتَج سوى لثوانٍ معدودة، حتى استسلمت كل أجهزته الحيوية، وغط في نومٍ عميقٍ.

# (5)

# هند

- وبعدين!

سألته ليجيبني بصوت مختنق:

- ده كل اللي حصل يا أستاذة هند، أنا معترف إني قصرت في شغلي، بس وكتاب الله ماليش علاقة بالرسالة دي، ولا أعرف جت منين! أنا ظروفي صعبة آه، لكن مش للدرجة اللي تخليني أفكر في الانتحار.

كنت أظن أننا على مشارف فك اللغز، كدت أن أنفجر في وجهه، لكن استوقفتني نظرات طارق الشاردة، الذي أخرج سيجارة مرة أخرى غير مبالٍ تلك المرة بقواعد المكان، أشعلها ولاحظت رعشة يده المتوترة، شكرت عباس وطالبت موظفي الأمن بالانصراف، ترك ثلاثتهم المكتب، سألت طارق عما به، لم يجِبني وكأنه لم يسمع، خلع نظارته، وضعها فوق المكتب، ثم دون مقدمات، قال:

- كنت صغير لما أبويا وأمي ماتوا في حادثة عربية، وبعد ما كبرت، سألت جدتي، هما ماتوا إزاي!

# (6)

# طارق

كنت أبلغ من العمر خمس سنوات، طفل لا يرجو من الحياة سوى اللهو واللعب، لا يدرك معاناة والده مع مرضه الذي دمر كبده وفطر معه قلب أمه، كنت أرى نوبات تعبه المفاجئة التي تهاجمه دون مقدمات، أشير إليه وأسأل أمي عما به، فتجيبني مبتسمة بمرارة وهي تمسح على رأسي:

- بابا عنده شوية مغص حبيبي وهيروح.

أهرب من صوت صراخه العالي إلى غرفتي، ألهو بألعابي حتى تهدأ عاصفة ألمه، أول ما يفعله هو البحث عني، يدخل إلى غرفتي، وكأنه يودعني، فيمطرني بقبلاته ويقوم باحتضاني ثم يجهش باكيًا، أخبره خوفي من أن يصيبني «المغص» فلا أقوى على تحمُّله، فيعتصرني داخل صدره أكثر، وهو يقول بصوت مرتعش:

- بعد الشر عليك حبيبي.

تلحق بنا أمي الأكثر تماسكًا، تداعبني وهي تؤدي حركتنا المفضلة الخاصة بيننا، تعقد إبهاميها الاثنين حول بعضهما، وترفرف بأصابعها الأخرى على هيئة جناحيّ يمامة مخرجة لسانها، أضحك، فتلتفت لأبي وتربت على ظهره حتى يهدأ

تمامًا، يخلع نظارته ليمسح زجاجها الذي أغرقته الدموع، تفتح دولابي، تخرج منه لعبة المكعبات الملونة، وتنثر محتويات الشنطة البلاستيكية أرضًا، وهي تطالبني بتشكيل مُجسَّم ما، مع وعد في حالة اجتيازي للتحدي بنجاح، أن أنال مكافأة لا تفصح عنها، لتكون مفاجأة سارّة لي.

صنعتُ ذات مرة منزل غير مكتمل، قبّلتني وهي تساعدني في ترميم ما تبقى منه، ثم أهدتني سيارة تعمل «بالريموت»، في مرة أخرى صنعت طائرة كاملة دون تدخل منها، وكانت الجائزة أكبر تلك المرة، مُشغل ألعاب كنت تمنيته حينما شاهدت واحدًا مثله مع صديقي (مازن)..

حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم..

كنا في بيت جدتي، التف أبواي معها حول مائدة الطعام، بينما كنت أجلس أرضًا، وقد قررت خوض تحدٍّ أصعب للفوز بجائزة أكبر تلك المرة، انهمكت في صُنع سفينة ضخمة، بأدوار متدرجة وساريتين، لمحتْ أمي ما أصنع، فنبهتني إلى أنَّ السفن الضخمة لا تحوي سوارٍ، السواري تتواجد فقط في المراكب الشراعية، لتقاوم الرياح فتتحرك أينما شاءت، هدمتُ ما صنعت، وشرعت في بناء واحدة أخرى، المهمة تلك المرة لا يجب الاستهانة بها، فالمكافأة تستحق بعض العناء.

سقط كأس الماء من يد أبي، ليتهشم أرضًا وتهب أمي

لنجدته، نوبة جديدة، لكنها على غير العادة، لم تتدرج في شدتها، قذفت بأقصى درجاتها مرة واحدة، هب واقفًا، استند على أمي وجدتي، صاحت الأخيرة تطالبني باللحاق بهم، ركبنا سيارة أبي، لتمسك أمي المقود بكل قوة وتتحرك نحو أقرب مستشفى، بينما جلست بالخلف بجوار جدتي، التي راحت تتلو ما أسعفها لسانها المعقود من أدعية وأذكار، أخرجتُ من الحقيبة سفينتي التي شارفت على الانتهاء، تكورت خلف مقعد أمي على أرضية السيارة، ورحت أُنهي ما بدأت، على صوت صراخ أبي المتكور على المقعد الأمامي، اهتزت بنا السيارة بعنفٍ وكأن أصابها مغص هي الأخرى، جراء قيادة أمي الصعبة كما كان يصفها أبي دومًا، بينما أسمع من خندقي أمي، أمي السيدة الهادئة المتماسكة، تقذف كلَّ من حولها من سيارات بالسب والبصق، وكأن طاقة صمودها نفدت لتوها، أخيرًا وبعد دقائق، أكملت صُنع سفينتي، أطلقت صرخة انتصار، بينما راحت ترمقني جدتي بنظرات متوعدة، اعتدلت لأقف وأنا أمد يدي، واضعًا السفينة أمام وجه أمي لأريها إياها، وأطالبها بجائزة تليق بمجهودي المبذول، التفتت أمي إلى الخلف، ولأول مرة، تصرخ في وجهي بهذا العنف، بينما فزعت جدتي لتنتشلني وتبعدني عنها، لكن فجأة خرجت مقطورة خضراء ضخمة من أحد الشوارع الجانبية لتعترض طريقنا.

دهست أمي فرامل السيارة بكل عنف، ليعلو صريخ الإطارات، وفي جزء من الثانية، أدركت جدتي أن الكارثة واقعة لا محالة، وبسرعة البرق، تكورت بجسدها حول جسدي، وانحنت خلف المقاعد لنحتمي بها، ثم... تصادم عنيف فقدتُ وعيي على إثره..

أفقت في المستشفى محمولًا على ذراع جدتي، لأدرك أبي وأمي في حالة حرجة جدًّا، بينما لم يصِبني وجدتي، سوى بعض الخدوش، وأثناء ركضِنا خلف المسعفين، الذين راحوا يدفعون سريرين متحركين يحملان جسديهما، حرصتْ جدتي على تلثيم عينيَّ بكفها، حتى لا أرى الملاءات التي استحال بياضها إلى حمرة قانية، كنتُ أهرب من كفّها وأسترق النظر إليهما، رأيت نظرات الفزع في وجه جدتي، وكذلك القلق والتوتر في أعين المسعفين ذاتهم، حتى وصلنا لباب أبيض كبير، ابتلعت درفتاه السريرين، قبل أن يرتدا لينغلق في وجهي، ويجبرنا على التوقف، أنزلتني جدتي، رفعت رأسي لأعلى لأقرأ ما كُتب على اليافطة، لكن دون جدوى، وأدركت فيما بعد أن الكلمتين هما، العناية المركزة..

لم تمر ساعة حتى وجدت الطبيب المسؤول يقترب من جدتي، ويهمس في أذنها ببعض الكلمات، راحت على أثرها تبكي في نحيب متواصل، وهي تعتصر جسدي بين ذراعيها،

حتى كادت ضلوعي أن تتهشم، كأنها تتشبث بآخر ما لديها في الحياة، وأدركت لحظتها، أني لن أرى أبي وأمي مجددًا..

# (7)

# هند

سكت عن الكلام، تركته حتى تأكدت أنه لم يعد لديه المزيد لقوله، سألته:

- قصة مرض رضا فكّرتك بوالدك؟

أومأ برأسه فأردفت:

- ماتحمّلش نفسك فوق طاقتك، إنت كنت مجرد طفل مش فاهم، وموتهم ده قدر ربنا كاتبه.

رفع رأسه وقال:

- هند، ممكن أطلب منك طلب؟

- شور.

- ممكن ماتخليش عباس يرفده؟

- هو أنا ما اتعودتش أتدخل في شغل حد، لكن اعتبر ده حصل، وأنا هعرف أهندل عباس.

ثم شكرني بامتنان وهمّ فجأة بالرحيل، استوقفته:

- أخبار رُقية إيه؟

تسمّر فجأة وكأنه تذكَّر:

- كنت معاها النهارده.

- معاها؟

- قصدي عند بيتها يعني.

سكت لبرهة ثم استطرد:

- عارفة؟ موضوع الرسالة ده شغلني شوية عنها الفترة الأخيرة، ودي حاجة مش عارف حلوة ولا وحشة!

- إنت إحساسك بيقولك إيه؟

أطال النظر إليّ قبل أن يهمس:

- الظاهر إني المفروض أسمع نصيحتك وأدي لنفسي فرصة تانية.

- ممكن أطلب أنا بقى منك طلب؟

- تحت أمرك.

- ممكن أجرب معاك رحلة من رحلات الطائف؟

# الفصل السابع
# (1)

***5 أبريل 2021***

***الثامنة صباحًا..***

كان رشدي في طريقه إلى عمله، يجلس بأتوبيس اكتظ بالركاب، لكنه كان وحيدًا مع ذكرى آخر مكالماته مع (ندى)، فبعد مرور ما يقرب من الثلاثة أشهر، على أول محادثة بينهما، وبفضل دهائه وكلامه المعسول، المكتسَب من كثرة ممارساته لفن الخداع، سقطت ضحيته في شرك الإغواء، رفعت الضحية القيود، وسقطت المحاذير بينهما، اكتظ هاتفه بصورها المجردة، طلب مقاطع مصورة أكثر حميمية، لكنها كانت دومًا ما تجيبه: «خليها على الطبيعة أحسن»، فيسيل لعابه أكثر، سألته مرة، متى يعود للوطن ليسكنه، ويسكنها أيضًا؟

فكّر، ولمَ لا!

كان يتجنب اللقاءات المباشرة، نتيجة لتجربة سيئة ماضية، جلبت المشكلات فوق رأسه، وقرر بعدها الاكتفاء بالتواصل عبر «الإنترنت»، لكن خرق القاعدة مرة ثانية، لن يضير، ما جلّ ما سيحدث لو انكشف أمره؟ سيخسر فريسة،

وسيسعى لقنص أخرى، كما حدث من قبل، وبالفعل، وفي المساء، وبينما كان مستلقيًا على فراشه، وعلى أنغام شخير رفيق غرفته، أرسل يزف إليها خبر، عودته لمصر في إجازة قصيرة، لإنهاء بعض أعماله، تهللت أسارير المسكينة، أجابته «بإيموشنات» السعادة والفرح، أمطرته بقبلات الاشتياق، سألته بلهفة عن الموعد، أخبرها، بعد يومين، أرسلت له «ايموشن» حزين، سألها عن السبب، قالت:

- فاجئتني، للأسف مش هكون جاهزة يا رشدي.

ثم تبعت ردها «بإيموشن» الكسوف، ففهم على الفور، سألها عن اليوم المناسب للقاء، أجابته:

- بعد أسبوع حبيبي أكون على سنجة عشرة.

فكر لثوان، ثم أرسل:

- ماشي، همد أجازتي شوية عشان خاطرك يا روحي.

# (2)

# طارق

- ممكن أجرب معاك رحلة من رحلات الطائف؟

كان طلبها مفاجئًا.. منذ اللحظة الأولى، التي فكرت فيها في تصميم «الطائف»، قطعت عهدًا على أن يكون شريكي الوحيد فيه، هي رقية فقط، صاحبة الأمنية، ووقود وصولي لهذا الكنز، لكن لا أدري سر قبولي لطلب هند، ربما لشعوري بإني مدين لها، هكذا.. وجدنا أنفسنا نجلس مع جدتي، بعد أن أقنعتها أن هند جاءت للاطمئنان عليها، تهللت أساريرها، غابت في المطبخ لدقائق، ثم عادت بصينية تحمل كأسين من الشربات، فلعنت اللحظة التي وافقت فيها هند على مطلبها، استأذناها في دخول غرفتي لممارسة عمل ما، تحولت نظرتها الودودة إلى قلق، دخلت غرفتها ونادتني، لحقت بها، لتبادرني قائلة:

- إنت اتجننت يا ولا، إنت إزاي تفكر..

ضحكت بصوت عالٍ، وأنا أربت على يديها:

- إنتي اللي إزاي تفكري فيا كده يا بطوط!! إحنا هنشتغل شوية على الكمبيوتر والله العظيم مش أكتر.

حدجتني بنظرة محذرة، وفي النهاية رضخت. حملت كرسيًا من الصالة واصطحبت هند لغرفتي، ونظرات جدتي تشيّعنا، أغلقت الباب، وأنا أكاد أقسم إن سهام نظراتها تخترقه، أحكمت وضع الكرسي بجوار مقعدي، التقطتُ النظارة الثانية لأهيئها لاستخدام أول مرة، التقطتّها هند من يدي بعينين جاحظتين، غير مصدقة أن هذا سيحدث، سألتها عن أي الأزمان ترغب في زيارتها؟، ظهرت الحيرة على قسماتها وهي تقول:

- أي دون نووو، بس مثلًا نفسي أحضر حفلة لأم كلثوم لايف، ولا أقولك، عبد الحليم، لا لا، افتتاح فيلم لسعاد حسني، بُص مش عارفة، اختار أنت.

حاولت الولوج إلى التطبيق، لكن ظهرت رسالة «فشل تسجيل الدخول نظرًا لملاحظة وجود شخص آخر في محيطك.. هل ترغب في مشاركته رحلتك؟» نعم.. من فضلك أعد إدخال رمز المرور المكون من 14 حقل!، أدخلته، من فضلك ارتدِ نظارتك! فعلت، فظهرت رسالة خاصة بالشريك الجديد، لتسجيل كافة سماته الشخصية، مع التأكيد على منحه كافة الصلاحيات، التي تمكّنه من الدخول إلى تطبيق الطائف، والتحكم به كيف يشاء، ذاكرًا على سبيل المثال؛ إضافة، أو حذف، أو تعديل مدخلات، وإعدادات، ومتحكمين

من الخادم..

طالبتها بارتداء نظارتها، أحكمت وضعها فوق رأسها، وهي تفرك كفيها في حماس.. ثم ضغطت على استمرار.

# (3)

# هند

كان المبرر المُعلن وراء طلبي لخوض رحلة من رحلات «الطائف»، هو الفضول، لكن لا أنكر أن ثمة أسبابًا أخرى، أسباب تتوالى وتتبدل، لا أملك اليقين بإحداها أو حتى جميعها، من يسمع قصة طارق، لن يتقبلها بسلاسة دون الشك في قواه العقلية، تارة أؤمن أن الأساطير تسكن فقط بين أوراق الروايات، ولا وجود لها في واقعنا الملموس، لكن ما يحكيه لي يدعو للشك والدهشة، وتارة أخرى أشعر أني أصدقه تمامًا، ويقودني شيءٌ ما للتقرب إليه أكثر، كل ما سبق أسباب قد يراها البعض غير منطقية وغير متشابهة، لا تصلح للاجتماع معًا، لكنها الحقيقة، ولذلك أنا هنا لأجد إجابات منطقية لها جميعًا.

ناولني النظارة الثانية بعد أن فك غلافها، التي يبدو أنها كانت في انتظار شخص آخر ليرتديها، تركتُ أمر اختيار الرحلة له، أحكمتُ ارتداء النظارة الضخمة، المدمج بها سماعات محيطية، لأنفصل تمامًا عن الواقع، أسمع الصمت، أتلفت يمنة ويسرة ولا أرى سوى الظلام السرمدي، أسمع نقر أصابعه على لوحة المفاتيح، ثم أزيزًا خافتًا يعلو تدريجيًّا من حولي، تظهر أمامي نقطة بيضاء، تكبر تدريجيًّا وكأنها تأتي

من بعيد، لتتجسد أمام عيني كلمة «ريلاكس» بالإنجليزية ثم.. جاري مسح البيانات.

مرحبًا بك في عالمك الجديد..

ثم دارت الأرض بي، وتسلل إلى أطرافي خدر مُحبَّب إلى النفس..

أنا الآن أقف في مؤخرة مسرح كبير، وعلى المقاعد أمامنا يجلس حشد من الجمهور، في انتظار فتح الستار، بينما يترامى إلى مسامعنا من خلفه، عدة أصوات متداخلة لإحماء آلات موسيقية، بلا مجهود مبذول أتحرك، فقط أفكر فيما أريد فعله، فيحدث، أفكر في رفع يدي فتعلو، أفكر في تحريك رأسي فتدور، فساتين ملونة أنيقة، بِدَل كلاسيكية وقورة، الألوان تحيط بنا من كل الجوانب، في مشهد غير مالوف لما اعتدنا أن نراه في التليفزيون، لكن بعد فترة تأقلمت أعيننا على العالم الذي نعيشه، التفتُّ لأجد طارق يقف بجانبي يتلفت حوله هو الآخر، يتفقد المكان، أسأله والسعادة تقذف بالإدرينالين في أطرافي:

- إحنا فين وسنة كام؟

يهز رأسه وتتحرك شفتاه ينطق شيئًا ما، فلا أسمعه، أكرر عليه السؤال لكنه يهز رأسه مرة أخرى مستوضحًا ما أقول،

أدركت أن صوت كلينا لا يصل للآخر، أشرتُ لأذني بما يعني أني لا أسمعك، فهم قصدي، رأيته يشير إليَّ أن أنتظره في مكاني، ثم...

تبخّر..

# (4)

# طارق

غادرت الرحلة، بعد أن ظهرت مشكلة انقطاع صوتنا، عُدت للواقع، لأجد هند تجلس بلا حراك وقد أرخت ذراعيها على مسنديّ المقعد، راجعت إعدادات البرنامج لإيجاد سبب الخلل، خاصة أن تلك هي الرحلة المزدوجة الأولى من نوعها، بعد عدة دقائق، اكتشفت موضع العطب، عالجته ثم عدتُ للحفل سريعًا، لأجدها تتلفت حولها في ذعر بحثًا عني، تلاقت أعيننا، جرت نحوي ثم احتضنتني باكية وهي تسأل:

- رُحت فين وسبتني؟

هدأتُ من روعها، أخرجتْ هاتفها، ثم راحت تطالع وجهها في انعكاسه، خطفته من يدها، ثم دسسته في حقيبتها، تذمرت:

- الميك آب باظ.

- هو إنتي حد هنا يعرفك؟

ضحكت، ثم قطع محادثتنا صوتُ هياج الحاضرين فجأة، التفتنا لنجدهم وقد اشرأبت رؤوسهم نحو الستار، وهو يُفتح يدويًّا ببطء، ويكشف تدريجيًّا عن الفرقة الموسيقية

من خلفه، بحُلَّتها السوداء وربطة العنق الضخمة المشهورة عن تلك الفترة، تظهر باقة ورد ضخمة في الخلفية، ويافطة كبيرة، كُتبَ عليها «مسرح محمد عبد الوهاب»، علا التصفيق، فصفقت هند بآلية طفولية وهي تضحك، من الكالوس، خرجت سيدة لتخطو على أرضية المسرح، ذات وجه صبوح، وابتسامة عذبة، يغلّفهما قصّة شعر أسود قصير، ترتدي فستانًا أنيقًا أبيض، ابتسمت، فانفجر المسرح تصفيقًا، السندريلا حضرت بنفسها، لتقديم نجم الحفل، حيَّت الحضور، اقتربت من «الميكروفون» وبصوتها المميز غردت:

- نقدملكم دلوقتي مطربنا العاطفي، العندليب الأسمر، عبد الحليم حافظ.

تعالى مزيجٌ من الصياح والتصفيق، مع انسحاب السندريلا ودخول العندليب بعينيه الجاحظتين وبدلته السوداء وقميصه الأبيض وربطة عنقه السوداء، انتصبت الفرقة من خلفه، وبعد أن حيّا الحاضرين طويلًا، التفت إلى الفرقة الموسيقية، وبإشارة متفق عليها، استراحوا على مقاعدهم وبدأوا العزف، أمسكَتْ هند بيدي في سعادة:

- بجد أبريشييت اللي بيحصل ده، أنا حاسة إني بحلم.

تململت لا إراديًا، فسحبت يدها بسرعة وسألت:

- إحنا هنفضل واقفين؟

أشرتُ وأنا أقول:

- إنتي شايفة مكان فاضي؟ وبعدين إنتي مش ملاحظة الناس باصلّنا إزاي، لولا سعاد حسني وعبد الحليم، كانوا زمانهم طردونا بره، بلبسنا الغريب ده.

اتسعت عيناها، وكأنها أدركت الأمر لتوّها، ثم راحت تتمايل على صوت عبد الحليم.

«وشبابي لقيته في شبابك ولقيت روحي.. سهرانة بترقص على بابك يا حياة روحي».

يندمج العندليب أكثر، يضيق عينيه، يرفع يديه لأعلى، يبتعد عن الميكروفون، يجوب المسرح يمنة ويسرة، يصفق في حماس، يتمايل مع أنغام الكمان وكأنه يراقصه، يعيد تهذيب شعره الثائر، يستدير ليواجه فرقته ويقوم بدور المايسترو، وهو يتبادل مع العازفين شفراتٍ متفقًا عليها، أنتبه على كف هند يربت على كتفي وهي تشير قائلة:

- في ناس قايمين أهو، تعالى نقعد مكانهم.

توجهنا حيث أشارت، لأجد من بين المغادرين رجلًا وامرأة، اتسعت عيناي عن آخرهما في دهشة، وأنا أتحقق من وجه

المرأة تحديدًا، أنها هي بالفعل، أجمل مما بدت في الصور، لاحظت نظراتي إليها، ارتبكتْ وتعثرتْ في طرف فستانها الساحر، سقطت حقيبتها أرضًا، هرولتُ لأنحني وألتقطه، ثم أناولها إياه، ابتسمتْ في خجل وهي تشكرني، لامست أطراف أناملها ولثمتها، سحبت يدها بسرعة، ثم دفعها الرجل في غضب، لتتحرك ويغادرا معًا، أدركت حماقة تصرفي، لكن كان أوان الاعتذار قد مضى، أسرعت أتبعهما، ومن خلفي هند تركض للحاق بي مندهشة، لكن ما إن خرجنا إلى الشارع، كانا قد ركبا سيارة أجرة مدّ سائقها يده للخارج ليدير العداد ثم انطلق، ويلحق بهما صوت العندليب وكأنه يودعها:

«لولا ضحكتها الحلوة وعدتني بحاجات حلوة.. حلوة الحلوة عنيك.. ياحبيبي.. يا.. ياااا.. حبيبي»

# الفصل الثامن

# (1)

# طارق

***اليوم التالي***

استيقظت لأجد جدتي جالسة تمسك بألبوم صور قديمة وتبكي، ربتّ على كتفها:

- تعيشي وتفتكري يا بطوط!

كفكفت دمعها وهي ترفع إحدى الصور التي تجمعها بجدي أمام عيني:

- جدك وحشني أوي يا طارق.

ترحمتُ عليه فأمّنت، التقطت الألبوم من يدها وقلّبت بين صوره، رُغم أني لم ألحق لأرى جدي من قبل، لكن جعلتني حكاياها الدائمة عنه وعن مغامراتهما سويًّا، أتعرف عليه أكثر وأتمنى لو كنت قابلته يومًا، من بين الصور واحدة يقف مبتسمًا وهو يحتضن كتفيها العاريين بذراعيه وهي تتشبث بهما في سعادة، تنهدتْ ثم همستْ:

- كان بيحبني وبيغير عليا أوي.

ابتسمت قبل أن تستطرد:

- مرة كنا في حفلة لعبد الحليم وعاكسني شاب يومها وكان هيضربه.

- اللي باس إيدك؟

- آه، أنا ساعتها من الكسو..

بترت جملتها وهي تتسائل:

- إنت عرفت الحكاية دي منين؟

- إنتي حكيتهالي زمان.

ضيقت عينيها وهي تهز رأسها نافية ثم همست:

- يمكن! القصد، الله يرحمه ويحسن إليه.

راحت تكمل ما كانت تفعله، تركتها ودخلت غرفتي لخوض رحلة جديدة، ثم تذكرت أمر الأسطوانة، دسستها في مشغل الأقراص، لأجدها تحوي قرابة الخمسين ساعة، غذيت بها التطبيق، لتظهر رسالة «جاري تحديد نسبة المواءمة» وانتظرت النتيجة، بعد دقائق أصابتني رسالة أخرى بالإحباط «نسبة المواءمة ضعيفة، هل ترغب بالتجربة على أي حال؟» فكرت لثوانٍ ثم.. لمَ لا! ماذا أملك لأخسره؟ مجرد محاولة قد تنجح وإن لم يحدث فلن تكون التجربة الفاشلة الأولى

ولا الأخيرة، ارتديت النظارة وضغطت زر استمرار.. وبعد تخطي الخطوات المعتادة للدخول، وعند سؤال التطبيق عن أي الشخصيات عليَّ اختيارها!، احترت، فأنا لا أعرف من الشركة سوى هند، وربما يؤدي اختيارها إلى بعض التقييد، لكن تصميم التطبيق لن يسمح بتخطي تلك المرحلة قبل استيفائها، في النهاية، اخترت هند وأنا عازمٌ على معالجة تلك المشكلة في القريب العاجل، لتفاديها في قادم الرحلات.

الاسم ثلاثي؟.. هند منصور، عاد للتأكيد على سؤاله.. هل تملك الاسم ثلاثيًا؟.. لا.

بضع ثوانٍ ثم قام بعرض عدة صور لنساء وكتب: «هل ترى من بين تلك الصور الشخص المراد؟ إن كان الجواب بنعم اختره، وإن لم تجده اختر لا».

اخترت من بين الصور صورة هند.

ظهرت رسالة «هذا الشخص مسجل بالفعل على خادم الطائف كشريك متحكم، هل ترغب في الاستمرار؟» .. نعم.. المكان؟.. شركة جلوبال ماستر هاند بالتجمع الخامس.. ظهرت لي رسالة «يتم مراجعة برنامج الخرائط».. التاريخ؟.. 3 مايو 2021..التوقيت؟.. فكرت لبرهة ثم اخترت، السابعة مساءً.. ليعلن.. جاري التحميل.

طالبني بارتداء النظارة ففعلت وأنا أُحكم قبضتي على الحصان..ثم...

# (2)

# طارق

***3 مايو 2021..***

***السابعة مساءً..***

أمام شركة جلوبال ماستر هاند..

أخرجتُ علبة سجائري، وأشعلت واحدة ونفثتُ دخانها، وأنا أرتكن إلى حافة النافورة في انتظار اللاشيء، الوضع هادئ لا يُنذر بالخطر، أراقب وجوه البشر بين داخل ومغادر، بعضهم من موظفي الشركة تبينتهم من خلال زِيهم الرسمي، وشباب آخرون يبدو أنهم ساعون للبحث عن وظائف، منهم من وُفّق فتجده مقبلًا بابتسامة نصر، ومنهم العابس الذي لم يحالفه التوفيق، تذكّرتُ عام تخرجي، وكيف كنت مثلهم، أضج بالحماس، ترفعني مقابلة عمل ناجحة لسابع سماء، ويخسف بي فشل أخرى، لأسفل سافلين، وبعد مرور ساعة كاملة، فكّرتُ في الدخول، اقتربتُ من رجل الأمن الواقف على الباب، بادرني:

- أؤمرا!

- داخل لآنسة هند منصور.

- قصدك مدام هند.

رفع جهاز اللاسلكي وخاطب أحدهم ثم سمح لي بالدخول، كنت قد قررت التواجد ببهو الشركة الكبير، لأظل بالقرب من مكتب «الريسيبشن ديسك»، وحتى لا أثير الشكوك، توجهت ناحية «الكافيتريا» لطلب مشروبًا، اشتريت «نسكافيه» وأثناء مغادرتي، سمعت وقع كعب حذاء أعرفه جيدًا، فوجئت بها مُقبلة تجاه «الكافيتريا»:

- إزيك يا هند؟

أدركت الكارثة التي وقعت بها، وزاد ارتباكي حين سألتني:

- فاين، مين حضرتك؟

- أناااا.. أنا طارق جبريل كنت جاي لحضرتك في مقابلة عمل.

- ويلكم، اتفضل معايا.

قالتها بدهشة واستدارت عائدة من حيث أتت وهي تشير لي باتباعها.

كان من المفترض أن أتجنب هند تمامًا، لكن للأسف لا أعرف شخصًا آخر لإدراجه في مدخلات تلك الرحلة، على أي حال حاولت عدم الاندفاع تجاه مكتبها، حيث أنه من

المفترض أني لا أعرفه، حتى أشارت إليه، وفي الداخل جلست أمامها بينما راحت تراجع هاتفها وهي تقول:

- اسم حضرتك مش متحددله انترفيو النهارده.

أخرجت علبة سجائري وولاعتي، وقبل أن أشعل واحدة بادرتني:

- نوسموكينج هير، ممكن حضرتك تقولي عايز إيه؟

فكرت.. هل أحذرها من أمر الرسالة، لتفادي حدوثه وتنتهي المشكلة قبل أن تبدأ وتصير واقعًا؟ لكن كيف ستستقبل كلامي دون اتهامي بالخرف!.. توتري أصابها بالقلق، لاحظت يدها تزحف لأحد الأزرار، شكرتها على عجالة من أمري، ونهضت لأغادر المكتب غير مبالٍ بصياحها المرتفع:

- إستنى عندك.

ساعدني على الهرب، صخب صادر عن تجمع البعض ببهو الشركة، حول فتاة يبدو أنها فقدت وعيها، حيث تعاون أحد أفراد الأمن مع فتاة أخرى في حملها، لفت انتباهي كلمة «run» الموشومة على ذراع المُنقذة، فاعتبرتها إشارة، توجهت مسرعًا لدورة المياه، وفي الداخل، أنهيت الرحلة، لأعود لغرفتي غارقًا في العرق، وجسدي يرتعش من التوتر.

# (3)

***27 أبريل 2021..***

***الثالثة عصرًا..***

***كايرو فيستفال..***

عبر رشدي بوابة المول بكل ثقة، وقد تجهّز للقاء على أكمل وجه، مرتديًا بدلته الرمادية الوحيدة التي لا يملك غيرها، حضر بعد أن غادر عمله، بحجة واهية من بين حججه الكثيرة، ارتدى كمامة على وجهه، حتى يتسنى له الهروب في حالة لو لم تكن الفريسة بالجمال الكافي، وبحكم امتهانه للكثير من الوظائف، التي كان من بينها محال تجارية متباينة داخل مراكز تجارية عديدة، لم يكن جو المولات الفخمة جديد عليه، كان الاتفاق أن يلتقيا في «كافيه» لكسر حدة اللقاء الأول، ثم اصطحابه لمنزلها، وافق على مضض، أرسل إليها ولأول مرة، رقم هاتفه ليتم التواصل بينهما، اقتطع من مدخراته خمسمائة جنيه، ليتكفل بالحساب، ويبدو أمامها بالشخصية الأجدر لتنازلها.

وفي «الكافيه» المتفق عليه تخير طاولة في ركن قصي بالمكان، حتى يتسنى لهما الكلام بأريحية أكثر، اقترب النادل يسأله عما يطلب، أشار له بالانتظار قليلًا، استجاب وابتعد،

فكر، إلى متى سيظل يعيش حياة الضياع تلك، لماذا لا يرتبط بإحداهن ليكمل معها مشواره، أحيانًا طبعه الريفي الملتزم يدفعه للتفكير في الاستقرار، يتذكر اليوم الأول له في القاهرة، ثم يرفع هاتفه ليرى في انعكاسه صورته، فيضحك، ويخاطب نفسه: «والنبي لو لبسوك حرير.. هتفضل جربوع ابن جرابيع» يختفي انعكاسه، ويضيء الهاتف باتصال، يجيب فيجدها تخبره أنها وصلت للمكان، يلمح احداهن تعبر باب «الكافيه»، ثم تتسع عيناه عن آخرهما، ويهب واقفًا ليرحل، تقترب منه أكثر، لتقطع عنه طريق الهروب، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة:

- إزيك يا رشدي؟ كنت فاكر إنك هتعرف تهرب مني؟

استقر مرة أخرى على مقعده في وجوم، تقف أمامه الآن إحدى ضحاياه، بل أكثرهم خسارة على الإطلاق، (أميرة)، التي تعرف عليها من خلال التطبيق نفسه منذ سنوات، منذ فترة طويلة، كان قد بلغه يقين، بأن بعد كل ما مرَّ من سنون، لا بُدَّ وأن جُرحها قد اندمل ونسته، ومع الأيام، نسي أمرها تمامًا، للدرجة التي لم يتخيل معها، أن توقعه في شرك كهذا، مؤكد هي الآن جاءت تطالبه بالتكفير عن فعلته، استجمع هدوءه وسألها:

- عايزة إيه يا أميرة؟

- عايزة حقي، حق مرمطة أهلي ليا بسببك، حق تخليك عني، وهروبك وأنا في أشد الحاجة إليك، حق ضرب أبويا ليا كل مرة كنت برفض فيها عريس يتقدملي، حق نومتي كل يوم معيطة، وأنا بعدّ الأيام والليالي عشان أعرف أوصلّك، حق مستقبلي اللي ضاع على إيدك عشان خاطر نزوة من نزواتك، كل دي حقوق ليا عندك.

- يا أميرة أنا حبيتك وكتاب الل...

ضغطت على أسنانها وهي تقاطعه:

- كفاية بقى، شبعت حلفان ووعود، إنت هتطلع معايا دلوقتي على المأذون ومش هدفعك جنيه، أنا اللي هحاسب، تكتب عليا وتغور في داهية، أنا مش عايزة أشوف وشك تاني، وأهلي أنا هواجهّم لوحدي، يمكن حتة الورقة دي تحسن صورتي شوية قُدَّامهم، وقُدّام نفسي.

بدت على وجهه ملامح التأثر، مدَّ يده ليمسك بيدها، إلا أنها انتشلتها بعيدًا عنه، هو يعترف في قرارة نفسه بظلمها.

تذكّر حينما تعرّف عليها منذ أكثر من عام، حبَّها صدقًا، ارتبطا سرًا، على أمل أن تتحسن أحواله، ويقف على أرض صلبة تعضدّه في طلب يدها من أبيها، التي طالما حكت عن قسوته وبخله، رأت في رشدي الفارس الذي سينتشلها

ليسكنها خلفه فوق فرس المستقبل الأبيض، في حين كان تخوُّفه الدائم، أن يصير مكانهما أسفل قدميه، خاصة بعد هزائمه المتتالية في صراعه الطويل مع الحياة، وبالفعل كانت لظروفه المادية الصعبة، اليد العليا، اليد التي هوت على طاولة أحلامه، وهشمتها لذرات لا ترى بالعين الحالمة، صارحها بأن مآل علاقتهما الفشل حتمًا، لكنها كانت لا ترى في الحياة سواه، طالبته بالصبر، مؤكدة على «هشتغل وأساعدك، وهنبني حياتنا سوا، وواحدة واحدة هنحقق حلمنا».

مرت الأشهر، وذات يوم، أصاب رشدي دور برد، أرقده الفراش قرابة السبع ليالٍ، بالدرجة التي دفعت أميرة إلى المجازفة، وزيارته بالسكن الذي كان خاليًا من قاطنيه عداه، وفي وقت مبكر من اليوم، تسلَّلت لترتقي درجات السلم المتآكل، تذكرت كيف حكى لها ضيق ذات اليد، وأن وضعه لا يسر عدو، وترديده الدائم على أن بالصبر، لا بُدَّ للأمور يومًا أن تنصلح، ورغم العروض المُغرية التي انهالت عليها، من عرسان الأقارب والمعارف، لكن منه لله الملعون الذي يُسمَّى بالحب، كان دومًا العائق بينها، وبين التخلّي عنه.

وصلت للطابق الأخير، دفعت الباب الخشبي الموارب دائمًا، ليصدر عنه أزيز، نادت عليه، سمعت سعاله، تفاجأ بها تقف

فوق رأسه، لثمت جبينه برقة:

- سلامتك، كنت هموت من القلق عليك.

سعل بشدة، ثم أخذ بيدها لتجلس بجانبه على الفراش وتلتقط أنفاسها، أمسك أناملها وقبَّلها، ثم راحا يتبادلان الحديث الهامس.

- إيه اللي جابك؟ أنا خلاص بقيت كويس.

- ماتعودتش ما أشوفكش أسبوع بحاله.

أوجعته كلماتها، التي لطالما أشعرته بالذنب، كان بداخله حب حقيقي تجاهها، هز رأسه بأسى، وهو يلعن الظروف وظلم الحياة.. قال:

- مش قولتلك غاوية وجع قلب!

ابتسمت رغمًا عنها وهي تقول:

- يا سيدي عاجبني، حد اشتكالك؟

ولأول مرة تبادلا الأدوار، سألها بنبرة يأس:

- وآخرة اللي إحنا فيه ده؟

- خير أكيد، مش إنت اللي طول عمرك تقولي آخرة الصبر جبرا! وآديني أهو يا سيدي مستنية الجبر.

ما زالت الأيدي في تشابُك، فاصل من الصمت، تبادلت فيه الأعين الرغبات، هي لم ترغب في شيء، سوى الاطمئنان وربما عناق دافئ، أما عنه، فطمح لأبعد من ذلك، جذبها برفق، قاومت في البداية، زاد من قوة الشد، أشاحت عنه بوجهها، راح يلثم خدها الأيسر، بقُبلاتٍ متتابعة وصل لشفتيها، ظلّت مُطبقة إياهما في إصرار، لفح وجهها صهدُ أنفاسه، ارتخت شفتاها رُوَيْدًا رُوَيْدًا، ثم استسلمت لتتضافر الشفاه، لينصهرا معًا، لف ذراعيه حول ظهرها، غابا في حضن طويل، ثم تهاوت طاقة مقاومتها تمامًا، لتسقط في بئر الغواية.

- تحبو تطلبوا حاجة؟

انتزعه صوت النادل، الذي انصرف بعد أن أجابه الصمت، نظر رشدي لعينيها الباكيتين، وقرأ فيهما مزيجًا من المرارة والألم واليأس، تذكَّر توسلاتها للتمسك بها وعدم التخلي عنها، واستجدائها له لسترها، وتحسين صورتها أمام أهلها، لكن بدلًا من كل هذا، هجرها، ترك منزله وانتقل لآخر، غيَّر رقم هاتفه، ومرت الأيام حتى نسي أمرها تمامًا.

أطرق رأسه يفكر، وبعد دقائق مدَّ يده، ومسح بأنامله دموعها الهاربة.

- روحي اغسلي وشك وتعالي نكمل كلامنا.

أطالت النظر إليه، قبل أن تقوم وتتجه لدورة المياه، وبعد عدة دقائق عادت لتجده قد رحل.

# (4)

## 27 أبريل 2021..

### العاشرة مساءً

تخطو في تثاقل فوق أرض الخيبة والمهانة، تعود لمنزلها، تطرق الباب، فتسمع من الداخل صوت أبيها «افتحي للشملولة»، تفتح أمها وهي تضرب خدها وتحدجها بنظرات اللوم، تدخل، فيسألها عن سر تأخرها، لا تجيبه وتدلف إلى غرفتها، يصيح بها:

- أصل أمك ماعرفتش تربيكي.. طب إيه رايك بكرة جايلك عريس وأنا موافق عليه، واعتبري الأمر منتهي، وعايزك ترفضيه زي كل مرة.

تُبدِّل ملابسها، تُخرج من أحد الأدراج قرصًا وتبتلعه دون ماء، تجلس ممسكة بإحدى الروايات، تسبح عيناها بين كلماتها، دون أدنى إدراك لحرف واحد، حتى روايات الحب والرومانسية، لم تَعُد مجدية لقتل تفكيرها المزمن كما كانت تفعل من قبل، تُلقي بها جانبًا، تُطفئ أنوار غرفتها، ثم تلقي بجسدها الفائر غضبًا فوق الفراش، تدس سماعات الأذن وتبكي في صمت، تفتح تطبيق التعارف، تبحث عن صفحته، حظرها بالطبع، تسمع نغمة رسالة «واتساب»، تمسح دموعها

وتقرأ المكتوب بها:

- روّحتي؟

تبادله السؤال بسؤال:

- عملت إيه؟

يرسل لها محدّثها، موقعين للخرائط، ويكتب:

- دي لوكيشنات بيته وشغله.

- حس بيك وإنت بتراقبه؟

- لا خالص، بس كان هاين عليَّا أقتله في الشارع، أنا ماشُفتش وساخة كده.

«إيموشن غضب»

- معلش ياحسام أنا مبهدلاك معايا.

- ماتقوليش كده يا أميرة، إنتي عارفة إنتي إيه بالنسبة لي.

«ايموشن قلب»

- عارفة.

- هتعملي إيه؟

فكرت قليلاً قبل أن تكتب:

- لسه مش عارفة، بس أنا مابقاش فارق معايا أي حاجة.

- طب ما تفكري في اللي قولتهولك يا أميرة!

- مابقاش ينفع ياحسام، مابقاش ينفع، تصبح على خير.

ألقت بالهاتف على وسادتها، أغمضت عينيها استجداءً للنوم، طاردتها صورة رشدي، وهو يضحك ساخرًا من سذاجتها، تساءلت كيف تحوَّل حبه إلى تخلٍّ بتلك الطريقة!، تذكّرت شعورها المرير بالوحدة بعد هروبه، وتأخر الدورة الشهرية عنها لأسبوعين عن ميعادها المعتاد، تذكرت أيضًا تساؤلها، حول إن كان قد حدث ما تخشاه!

استرجعت حديث خالتها مع أمها - من باب الثرثرة- عن كيفية تيقُّن الزوجة من حملها أو عدمه، ثم وصفة الأولى بإحضار رشة ملح ونثره فوق عيّنة البول والانتظار قليلًا، فإن تغيّرت هيئته وظهرت بعض التكتلات، كانت مؤشرًا لإيجابية الحمل، وإلا فلا صحةَ له، كذلك فعلت، وانتظرت عدة دقائق وهي تبسمل وتحوقل وتسأل الله الستر، لكن سبقت إرادته، ووقع ما لا تتمناه، راحت تبكي أمام عينة البول التي صارت كتلًا بيضاء، فزعت لأقرب صيدلية، استرجعت وجه الصيدلي، الذي نظر لها أمام طلبها بخبث، لكن كان رعبها قد تجاوز الخجل، وعلى أي حال، قررت بعد حصولها على طلبها عدم العودة لتلك الصيدلية مرة أخرى.

هرعت لدورة المياه، لتغمس طرف شريط اختبار الحمل في مجرى البول، انتظرت دقائق أخرى حتى ظهر خطان متوازيان، كاد ما رأته أن يصيبها بسكتة قلبية، لجأت لأقرب صديقة لها، لكن لم يكن استقبالها لاستغاثتها، كما توقعت منها، تهرّبت منها بحجج واهية، سبقت رسالة أخيرة منها توصمها بالعار، وأمر قاطع بعدم محاولة التواصل معها مرة أخرى.

بعد تفكير طويل استمر لأيام، أرسلت الى (حسام) تطلب مقابلته، لم يكد يتلقى طلبها حتى قفز من مكانه فرحًا، تجهّز واستعد ليتلقى منها أخيرًا موافقتها، على طلبه المتكرر للارتباط بها، لكن كانت صدمته عظيمة، حين اعترفت بذنبها أمامه: «أنا غلطت مع واحد».

تجمد في مكانه للحظاتٍ، قبل أن يسألها سؤالًا، يخشى جوابه:

- غِلطتي إزاي؟

حكت له كل ما حدثَ، بعد تجاوُز الصدمة والاستنكار وعدم التصديق، قرَّر مساعدتها، اصطحبها صباح اليوم التالي لطبيب نساء، كان قد أوصى به صديق له، يعمل بإحدى المستشفيات الحكومية، وعلى باب العيادة الخاصة، وقفت

أميرة تفكر في التراجع، بينما ظلَّ عقل حسام يتأرجح بين تشجيعها على المضي قدمًا تجنبًا للفضيحة، وبين إثنائها خوفًا من حدوث أي ضرر، لكنها في النهاية حسمت أمرها، دفعت الباب الزجاجي، استقبلتها سيدةٌ تجلس أمام مكتب صغير، سألتها عن الاسم ورقم الهاتف، ناولتها استمارة ذُيلت بإقرار خوضها لتلك العملية بكامل إرادتها، وكذلك إخلاء مسؤولية الطبيب من أي مضاعفات قد تحدث لها، بأصابع مُرتعشة وقّعت، ناولتها للسيدة التي طالبت بإضافة توقيع حسام عليها كمرافق للحالة، لم يتردد، أمسك بالقلم وخط اسمه ثلاثيًا.

مرَّ الأمر بسلام، وعلى عكس ما توقعته أميرة، لم يتخلَّ عنها يومًا، بل وتمسَّك بطلبه أكثر من الأول، حتى استعادت بعض ثباتها، أغرقها بالكتب والروايات التي طالما أدمنتها، ليقطع عن عقلها الطريق إلى التفكير في ماضٍ أليم، عرَّفها على أحد أقاربه، يملك مركزًا لتصوير وطباعة المستندات وكتابة رسائل الماجستير والدكتوراة، أدارت له المشروع بنجاح منقطع النظير، قرأت عن أحدث الأجهزة والمعدات المتخصصة في هذا المجال، باعت القديم منها واشترت الأحدث، وكّل إليها الرجل الإدارة تدريجيًّا، حتى صارت تملك صلاحية اختيار مَن تراه مناسبًا للعمل تحت قيادتها، وتقدير الراتب المستحق دون أي تدخل من المالك، كان حسام يُطل

عليها بين الحين والآخر، يقرأ في عينيها الامتنان وتقرأ في عينيه الحب، يتضخّم داخلها إحساس الذنب، فيزيدها الأمر بؤسًا.

سيطر ذلك المزيج من الذكريات الدامية والمشاعر المتضاربة على عقلها تمامًا، للدرجة التي لم تترك فيها فرصة للقُرص المنوم للعمل ولو للحظاتٍ، راح حسام يُلح عليها بعرضه للمرة المليون، صوَّر لها أن لا ملجأ ولا مفر إلا هو، كانت قد محت الزواج من قائمة أهدافها للأبد، لكن إلى متى ستتفنن في خلق الحجج لرفض العرسان! خاصة وقد صار رفضها مثيرًا للتساؤلات.

ولكن لو وافقت على أحدهم، مَن سيقبل الزواج بفتاة ثيب!، وحتى حسام، كيف تقبل الزواج منه وهي لا تراه سوى أخ وصديق، وحتى لو فكرت..

من يضمن لها أن ما يشعر به تجاهها حب وليست شفقة! وألا يكون سُكّر البدايات، غلاف لمرارة الامتلاك والتأقلم بعد ذوبانه! ما الضامن ألا يلجأ يومًا ما، أمام أحد الخلافات، إلى تذكيرها بخطيئتها وإذلالها!

وأخيرًا، كيف تتخلص من الحقيقة التي يصرخ بها قلبها كل لحظة! أنها ورغم كل ما حدث، لا تزال روحها معلقة بحب من سفح براءتها.

# (5)

# هند

***الريسيبشن ديسك***

أراقب طارق الذي يقف في منتصف الغرفة وبجواره مديحة، بينما تظاهر العاملين بانشغالهم بممارسة مهامهم، مع تبادل نظرات الدهشة والقلق فيما بينهم، انهمك طارق في نقاش طويل هامس مع مديحة، التي لم تكف عن الارتجاف، ثم سمعته يسألها عن موضع اكتشاف الرسالة، أشارت بسبابة مرتعشة إلى أحد الأركان، هز رأسه في حيرة، دنوت منه وأنا أسأله عما يفكر، شكر مديحة وطالبها بالانصراف، ولم يجبني، راح ينقل بصره بين طاقم العاملين بالمكتب، ظل يراقب ملامحهم، ثلاثة فتيان وفتاتان، عُلّق على صدر كل واحد منهم بطاقة تعريف..

(خالد عبد الحميد)، (محمد حسين)، (كريم إمام)، (سمية صادق)، (بسمة ياسين).

استوقفتني نظرات طارق الثاقبة تجاه الأخيرة تحديدًا، تفحصتها لاكتشاف الملفت بها لجذب اهتمامه، فلم أجد سوى جمالها المتمرد، وكلمة «run» الموشومة على ذراعها.

على أي حال تجاهلت الأمر وعدت لقضيتنا، قررت عدم

مقاطعة حالة تفكيره، تساءلت في صمت: «هل من بين هؤلاء نَجد جوابًا؟»

فيجيبني قلبي بأنهم مجرد شباب تشع عيونهم بالتفاؤل والأمل، أستبعد أن تكون الرسالة تخص واحدًا منهم، كانوا جميعهم على رأس من قمت باستجوابهم، ولم يبدُ على أحدهم أي دلالة على الكذب، بل وتوطدت علاقتي بهم أكثر، للدرجة التي فكرت معها أنه لماذا لا نعقد طقسًا ربع سنوي لتجمُّع جميع العاملين على الغداء، بعيدًا عن نطاق العمل المشحون، بهدف المزيد من التعارف والتقارب، وبدأت بالفعل في البحث عن مطعم يصلح لهذا التقليد، للتعاقد معه.

قطع تفكيري نقر حذاء طارق، وهو يدور بحركات دائرية حول نفسه، توقف ثم حك رأسه، ثم طلب الجلوس بمكتبي.

وهناك، بينما كان يرتشف «النسكافيه»، سأل عن طاقم المكتب وعما أسفر التحقيق معهم؟

- ناثينج، كانوا متفاجئين تمامًا من موضوع الرسالة دي.

- وبسمة!

- مالها؟

تردَّد لبرهة قبل أن يقول:

- حاسس إنها ممكن تساعدنا؟

- وإشمعنى بسمة تحديدًا؟

هزَّ رأسه:

- مفيش سبب محدد، مجرد إحساس.

ضغطت زر استدعاء، دخل على إثره فردٌ من السكرتارية، طلبت استدعاء بسمة، وبعد دقائق سمعنا طرق الباب، دخلت فناديتها لتجلس على المقعد المواجه لطارق، بدا عليها الارتباك وبادرها طارق قائلًا:

- طبعًا حضرتك عارفة موضوع الرسالة.

أومأت برأسها موافقة وهي تقول:

- عارفة، ميس هند حكتلنا عنه.

ترددت لبرهة قبل أن تستطرد:

- وفي حاجة حصلت كنت مترددة أبلغ حضراتكم بيها ولا لأ!

- شور بسمة، اتكلمي، إيه هي الحاجة دي؟

***

بعد قرابة النصف ساعة.. أنهت ما لديها، فسألتُها:

- ليه يا بسمة ماقولتيش الكلام ده قبل كده؟

- خُفت أكون بتدخل في موضوع مايخصنيش، وبعدين هو من ساعة ما اشتغل معانا وهو إنسان مريب محدش بيستريح له.

تدخل طارق قائلًا:

- والبنت اللي قابلته دي، راحت فين بعد كده؟

هزت رأسها نفيًا:

- معرفش، أنا سبتها بعد كده ورجعت لشغلي.

- معلش، قولتيلي اسمه إيه؟ وده حصل تقريبًا الساعة كام؟

- اسمه محمد حسين، وده حصل بالليل قبل ما نمشي، حوالي تمانية تسعة.

دوَّن ملاحظة في ورقة، ثم شكرها، غادرت المكتب، التفتَ إليَّ قائلًا:

- محتاج أبص على الكاميرات.

اصطحبتهُ إلى غرفة المراقبة، طالبتُ فرد الأمن بعرض تسجيل «الكاميرات» لمساء يوم الثالث من مايو، نقر عدة أزرار، وبعد دقائق انقسمت الشاشة الرئيسية إلى عدة

مربعات تعرض تسجيلًا لكل «كاميرات» المراقبة، ظهرت في إحداها بسمة وهي تغادر المكتب، يجذب انتباهها أمرٌ ما، تهرع على أثره تجاه الباب، ننتقل «لكاميرا» أخرى لتتبع أثرها، فنراها تعاون أحد أفراد الأمن في نقل فتاة فاقدة الوعي، وبعد تقديم التسجيلات، لما يقدّر بساعة كاملة تقريبًا؛ لتجاوز إجراءات إفاقتها، غادرت الفتاة الشركة بصحبة بسمة، وبعد حديث قصير عادت الأخيرة لمكتبها، بينما تابعنا الفتاة حتى استقرت جالسة على حافة حوض خرساني ضخم، يحيط بنافورة مضيئة أمام مدخل الشركة، من حسن حظّنا أن رضا قام بفصل «الكاميرات» الداخلية فقط، قام الرجل بتقديم التسجيل مرة أخرى لتجاوز جلستها التي استغرقت قرابة الساعتين بلا حراك، وكأنها صارت صنمًا ثُبت فوق النافورة، حتى الحادية عشرة مساءً كما هو مُوضح أعلى الشاشة، اقترب منها أحد أفراد الأمن، دار بينهما حوار لم يستغرق دقائق، أخرجت هاتفها، كتبت شيئًا ما، ثم انصرفت لتختفي عن أعين «الكاميرات» تمامًا.

طالبت رجل الأمن:

- عايزة السيكيورتي اللي ظهر في الفيديو ده يجيلي مكتبي، واطبعلي صورة واضحة للبنت دي.

- تمام يا افندم.

ثم أمسك باللاسلكي وراح يطلب من أحدهم ضرورة حضور (مدحت شحاتة)، لمكتب المدير التنفيذي الآن وعلى وجه السرعة، ثم أخرج هاتفه والتقط صورة واضحة لوجه الفتاة، طبعها ملونة من خلال الطابعة التي تعمل «بالواي فاي»، ناولني إياها قبل أن أعود لمكتبي برفقة طارق.

# (6)

# طارق

في مكتب هند بلغ التوتر منها مبلغه، فراحت تنقر بظفرها فوق سطح المكتب وهي تتفحص الصورة بتمعن، ثم أمسكت بهاتفها لتتصل بأحدهم:

- مساء الخير يامتر، ممكن تشرفني في مكتبي شوية؟.. لا خير مفيش حاجة.. منتظراك.

أنهت مكالمتها ثم رفعت سماعة الهاتف، وطلبت تكليف (محمد حسين) من مكتب «الريسيبشن ديسك» بالحضور لمكتبها فورًا.

مرت دقائق من الصمت قطعه نقر الباب، دخل اللواء عباس وتبعه أحد رجال الأمن، مدحت الذي ظهر مع الفتاة خارج الشركة، لحق بهما رجل أنيق يرتدي بدلة رمادية، ويحمل دوسيه يحوي عدة أوراق، نادته هند «بمستر» (بليغ)، عرفتُ فيما بعد، أنه مدير إدارة الشؤون القانونية بالشركة، طغى على وجوه الجميع ملامح الاندهاش، قامت هند من مجلسها ثم دعت الحضور للجلوس حول طاولة الاجتماع البيضاوية، جلست على رأسها ودعتني للانضمام إليهم، ثم حكت ملخصًا لرواية بسمة وما شاهدناه في «كاميرات» المراقبة، دفعت

الصورة بيدها لتنزلق فوق سطح المكتب وتستقر أمام (مدحت).

- تعرف البنت دي؟

ترددت العيون بين الورقة ومدحت، في حين ضيَّق الأخير عينيه في محاولة للتعرف على صاحبة الصورة.

- اااااه، افتكرتها، دي قابلتها قاعدة على النافورة اللي قُدَّام الشركة كانت مستنية باباها.

- احكيلي اللي حصل بالظبط!

***

قص عليهم كل ما دار بينه وبين الفتاة..

شكرته هند ثم انصرف، وبعد دقائق، نقر أحدهم باب المكتب، صاحت هند:

- ادخل.

دلف إلى المكتب، شاب قمحي اللون، تساءل بصوت متقطع:

- حضرتك طلبتيني.

- إنت محمد حسين؟

- أيوه يا افندم.

دعته للجلوس، استرق النظر تجاه الصورة فزاد توتره، وجهت حديثها إلى بليغ:

- افتح التحقيق يا متر.

أمسك بليغ بهاتفه، وجَّهه ناحية محمد، ضغط على الزر الأحمر المستدير ليبدأ التسجيل، نطق تاريخ اليوم، ووقت بدأ التسجيل، ثم سأله:

- اسمك بالكامل!

تلعثم الشاب وهو يقول:

- محمد حسين رشدي.

# الفصل التاسع
# (1)

تقف أميرة أمام الواجهة الزجاجية للشركة، تحاول السيطرة على ارتعاشة يدها، تقرأ المكتوب أعلى البناية، «جلوبال ماستر هاند»، تخطو بهدوء تجاه رجل الأمن المنتصب أمام مكتب خشبي، الذي عاجلها:

- أؤمري يا آنسة.

أخبرته إنها قَدُمت لملء استمارة عمل، وبعد تخطّي روتين الدخول، قابلت رجل أمن آخر، سألته عن موظف يُدعَى (رشدي)، هز رأسه في حيرة، أخرجت هاتفها تعرض له صورته، ضيَّق عينيه قليلًا ثم نادى زميلًا له وعرضَ عليه الصورة، صاح الأخير:

- ده مستر محمد حسين في الريسيبشن ديسك.

- بس هي بتقول إن اسمه رشدي.

قاطعته:

- أيوه رشدي ده اسم جده، أو لقب العيلة تقريبًا، ألاقي مكتبه فين؟

أشار لها بسبابته ناحية اليسار، شكرته وتحركت، لتجد عدة مكاتب متجاورة من بينهم واحد حُفر على يافطته «reception desk»، فتشت بين العاملين عنه، حتى وجدته واقفًا أمام طابعة، تلفظ أوراقًا متتابعة بلا توقف، كأن لا نهاية لها، وبينما ينتظر، أخرج منديلًا وراح يمسح حوافها بحرص وعناية، يظهر على ملامحها شبح ابتسامة ساخرة، وربما وبخها عقلها «ليته اهتم بكِ كما يفعل بتلك الآلة».

أخيرًا يلتقط الأوراق، ثم يعود ليجلس مرة أخرى، انهمك في مراجعة شيءٍ ما، تُبصِر انعكاس ضوء الشاشة على وجهه، تتساءل كيف لهذا الوجه الصبوح أن يُخفي خلفه كل هذا الجحود! تفحصت وجوه زميلاته ذوات الشعور المسترسلة، وزيّهم المشدود حول خواصرهن ولسان حالها يقول، «طبعًا ليك حق تدوس عليّا بأوسخ جزمة».

ثم طرق رأسها تساؤل أغفلته تمامًا: ماذا أفعل هنا؟ هل أكتفي بالظهور أمامه؟ أم أدّعي أن خداعه أسفر عن طفل لأصيبه بالرعب ويذعن لتهديدي؟ أم أصرخ فيه أمام الجميع لتحوم حوله الشبهات؟ فيصير مهددًا بالطرد من كيان كبير كهذا، يبدو أنه عانى الكثير لينضم إليه.

ارتفعت حدّة توترها لأعلى مستوياته حينما لمحها تتابعه من الخارج خلال الزجاج، ارتبك، عاد يتابع شاشة الحاسوب

في محاولة لإدراك ثباته مرة أخرى، ظلَّ يداعب أزرار لوحة المفاتيح دون أن يضغط أحدها، هبَّ واقفًا فجأة وأخبر زميله بشيء ما، خرج ليواجهها، سألها:

- إيه اللي جابك هنا؟

لم تُجِبه، جرَّها من ذراعها، امتثلت في استسلام، عبرا بهو الشركة حتى وصلا الى «الكافيتريا»، أجلسها على طاولة نائية، سألها عن كيفية التوصل لمقر عمله، ضغطت على حروفها وهي تقول:

- أنا جاية عشان أقولك دي آخر مرة هتشوفني فيها، وإني مش مسامحاك.

- ماشي، حاجة تانية؟

صدمها بروده، اتسعت عيناها وارتعشت شفتيها وهي تقول:

- إنت بتعمل معايا كده ليه؟

انفجر فيها:

- انتي مابتزهقيش؟ بصي بقى، لو لمحتك تاني في أي مكان أنا فيه هقتلك يا أميرة، ومش هقتلك بإيدي، هبعت حاجة لأبوكي وهو عارف هيعمل إيه.

أمسكت يده:

- طب بلاش نتجوز، بس أبوس إيدك ماتسيبنيش، ماتشوهش صورتك عندي أكتر من كده.

انتزع يده وتركها وانصرف، وبعد دقائق نهضت تجر قدميها لتغادر، وما إن غادرت باب الشركة حتى سقطت مغشيًا عليها.

***

أفاقت على يدٍ تربت على خدها، لتجد فتاة تجلس بجوارها وتبتسم:

- إنتي كويسة؟

- إنتي مين؟

- أنا اسمي بسمة، إنتي كويسة؟

- عايز أروح.

قالتها وهي تحاول النهوض، لكن خانتها قدماها، لترتمي مرة أخرى على المقعد، تلفتت حولها وهي تتساءل عن المكان:

- دي غرفة الأمن، نقلوكي فيها لحد ما تفوقي.

أنهت بسمة جملتها ومدت يدها بزجاجة مياه، تناولتها أميرة، رفعتها بيد مرتعشة لتغرق ملابسها، سألتها بسمة:

- أنا شُفتك واقفة مع محمد، إنتي خطيبته؟

هزت أميرة رأسها بالإيجاب، لتداعبها بسمة قائلة:

- طب في حد يبقى خاطب القمر ده ويزعله؟

ابتسمت أميرة تلقائيًا وهي تقول باكية بصوت مُتهدج:

- يرضيكي رشدي عايزنا نتجوز من غير ما نعمل فرح!

أنهت جملتها، نجحت في الوقوف تلك المرة، استوقفتها بسمة، لكنها أصرت على المغادرة، لحقت بها لخارج الشركة، اطمأنت ثم ودعتها، نادت عليها أميرة، فعادت إليها لتسألها:

- عايزة حاجة!

- ممكن بس آخد منك هوتسبوت عشان محتاجة النت ضروري ورصيدي خلص.

مدَّت لها بسمة يدها تطلب الهاتف، ناولتها إياه، دخلت على الإعدادات وهي تقول:

- بس كده؟ وايفاي الشركة كله تحت أمرك يا ست البنات.

أعادت إليها الهاتف، ودعتها مرة أخرى، ثم هرعت للداخل

عائدة لعملها، وعلى حافة النافورة الضخمة أمام الشركة، جلست أميرة، فتحت تطبيق التعارف، بحثت عن رسائله، حظر، حاولت إرسال رسالة على «الواتساب»، حظر، ألقت بهاتفها أرضًا، ثم راحت تبكي، وبعد انتظار ساعة كاملة اقترب منها أحد رجال الأمن، انحنى ليلتقط هاتفها وهو يسألها عن سرّ انتظارها، نظرت لساعتها لتجد الوقت قد تخطى الحادية عشرة، قالت:

- كنت مستنية والدي بس يخرج.

- الساعة 11، زمان كل اللي جوه خرجوا يا بنتي، وارد يكون والدك خرج من باب تاني.

التقطت منه هاتفها، وراحت تبتعد عنه باكية، ونظرات دهشة الرجل تتابعها، تشوَّشت الرؤية من أثر الدموع، تراه يقف تحت عمود الإنارة ويسخر منها ضاحكًا، وقد حولته الرؤية المشوشة لمسخ قبيح، تمسح عن مقلتيها ماء وجهها، تهرع إليه حتى إن وصلت، تجده قد تبخَّر، وما زال صوت ضحكاته يحيطها من كل جانب، تتلفت حولها فترى أباها يقف مُكشرًا عن أنيابه، يمسك صورها بيمناه بينما يحمل سكينًا بالأخرى، يركض نحوها كالثور الهائج شاهرًا نصله الحاد في وجهها، تتخذ وضع القرفصاء وهي تحتضن رأسها بكفيها مغمضة العينين، ثم...

لا شيء..

لماذا لم يمنحها فرصةً أخيرة لتخبره أنها وبرغم كل ما سبق، لا تزال تحبه، فكرت في طريقة لإخباره، وكأنها أدمنت قسوته وجحوده، تذكرت الطابعة التي كان يقف أمامها، تُشبه واحدة كالتي تستخدمها في مركز التصوير، مسحت بكم قميصها دموعها المنهمرة، فتحت برنامج الطباعة المثبت على هاتفها، بحثت عن أسماء طابعات، وجدت خمسة أجهزة ومن بينهم طابعة سميت ب «reception desk»، وعلى صفحة بيضاء كتبت:

«ما عدت أملك من الشجاعة سوى ما يعينني على الرحيل، وترك آثار دمائي فوق أناملكم على أمل أن تعترفوا يومًا بذنبكم نحوي، فاليوم فقط أدركت معنى إني حر مما أنا عنه آيس، وعبد لما أنا له طامع».

ثم ضغطت زر «طباعة».

# (2)

# طارق

بعد ربط كل المعطيات التي لدينا، من واقع لقطات تفريغ الكاميرات الداخلية والخارجية قبل انقطاعها، وشهادة بسمة، وأقوال مديحة ورجل الأمن، وختامًا باعتراف رشدي، الذي سرد ما حدث، منذ بداية تعارفهما، وحتى لقائهما الأخير، ودون تجميل أو ادعاء راح يحكي، بينما تترقرق عيناه الشاردتان بالدموع، استشعرت رغبة حقيقية لديه، في التطهر من ذنبه، تجاه تلك المسكينة.

لمحت في عيني هند غلًّا أنثويًّا قابلًا للانفجار في أي لحظة، ظلَّ حبيسًا بعض الوقت، حتى فشلت في كبته أكثر من ذلك، صرخت في وجهه بالدرجة التي أفزعتنا جميعًا:

- يعني كنت عارف إن في حد هينتحر بسببك ومافكرتش تنقذه؟

رفع رشدي رأسه نحوها، هز رأسه نافيًا، ودون أن ينظر إليها، وكمن لا يبالي إن صدقه أحد أو كذبه، همس:

- ما تخيلتش لحظة، إنها ممكن تعمل كده.

سيطر الصمت على محيط المكتب، وأنا لا أفكر سوى في

مصير تلك الفتاة المسكينة، التي حضرت إلى مقر عمله في محاولة يائسة أخيرة، لإقناعه بالاستماع إليها، ولمّا لم تجد منه أي استجابة، تركت له رسالة، علَّها تجد طريقها إليه في صباح اليوم التالي، تركتها دون الإشارة إلى أي أسماء، خوفًا من فضح أمره، وتصادف تواجُد رضا في تلك اللحظة لسرقة غفوة بعيدًا عن عدسات الكاميرات، لفظت الطابعة الورقة، لتطرحها رياح المروحة أرضًا، لم يلحظها الأخير، وكان أول من تتعثَّر بها، هي مديحة، لتجدها مُبلَّلة وتعلقها خلف التابلوه لتجف، ولتكتمل المأساة، تضطرها ظروف مرض أبيها لمغادرة عملها، ونسيان الأمر برمته.

بإشارة صامتة من هند، أخرج بليغ مستندًا من الدوسيه، ناوله لرشدي وطالبه بالتوقيع، لم يتردد الأخير، وقع عليه دون حتى مراجعة محتواه، الأمر واضح، لم يعد له مكان في الشركة، همَّ بالوقوف، استوقفته أنا:

- حاجة أخيرة!

التفت نحوي:

- عايزك تعرفني عنوان أميرة.

وافق في استسلام، التقطت رسالة الانتحار ودسستها في جيبي وغادرنا مسرعيين..

# (3)

# هند

دائمًا ما يفاجئني طارق بتفكيره، يذهب إلى زوايا، لا أُبصِرها حتى يقف بها، فتبدو شديدة الوضوح ومنطقية للغاية، أندهش بإغفالها من البداية، بعد ما اعتقدت أن الأمر انتهى بظهور الحقيقة كاملة، عدت لأشاركه شعور الواجب تجاه إنقاذ تلك الفتاة بأي شكل، وبالفعل، وفي طريقنا إلى منزل أميرة، كما وصفه لنا رشدي، هاتفت (إيهاب الصيرفي)، الذي أطلق زفرة ارتياح، بمجرد إبلاغه بالأخبار الجديدة، وبعد انتهاء المكالمة، سألني طارق:

- تفتكري عملت في نفسها حاجة؟

- أي هوب نوت، على العموم أنا شايفة إنك عملت اللي عليك أي كانت النتيجة.

هز رأسه ولم يرد، ثم سألني:

- ماقولتليش ليه إنك متجوزة؟

- كنت، وحاليًا مُنفصلة وعايشة لوحدي، بس إنت عرفت منين؟

- مش مهم، بس مش ملاحظة حاجة؟

- إيه؟

- إنك مابتحكليش عنك أي حاجة؟

- معنديش حاجة جديرة بالحكي، أنا كنت إنسانة فارغة.

- وإيه اللي حصل؟

ترددت لبرهة قبل النطق بـ: «قابلتك».

# (4)

## *أميرة.. ومحاولة أخيرة للحياة*

- أنا عارف إنتي خايفة تتجوزيني ليه؟

قالها حسام بتحدٍّ مشوب بغضب، غضب من مل المحاولة، من مل الرفض الدائم، أمام طلب وحيد متكرر دون يأس، لكنه تلك المرة خرجت منه الكلمات بلا تجميل، بلا استجداء، بلا توقعات كبيرة، خرجت من شخص لم يعد باقيًا على شيءٍ، أو أحدٍ، وكأنها المرة الأخيرة.

كانت مولية له ظهرها، تقف أمام ماكينة التصوير تعالج شيئًا ما، ضغطت بقوة زر التصوير، راحت الماكينة تقذف خارجها بأوراق متتابعة ساخنة، راقبت المشهد وهي تتمنى ألا تتوقف الماكينة لحظة، وإلا ستضطر وقتها للالتفات إليه والرد، احترم صمتها، اعتبره رفضًا آخر جديدًا، أطرق رأسه بعد أن ضجر النظر إلى ظهرها، فكر في الرحيل، ولكن تلك المرة بلا عودة، شعر بحركة فرفع رأسه ليجدها قد استدارت، وراحت تراقبه في صمت، قرأ في عينيها نظرة غير مألوفة، لم يرها من قبل، اهتزت شفتاه لقول شيء ما، لكنها بادرته قائلة:

- حسام، إنت إنسان جميل أوي، جميل للدرجة اللي

مخلياني مستخسراك فيَّ، إنت مستقبلك كويس وتستاهل واحدة أحسن منّي مليون مرة!

سكتت لبرهة وكأنها تراجع ما قالته ثم تابعت قائلة:

- هرجع وأسألك للمرة الألف، أضمن منين إن...

- أميرة عايزك تعرفي إني لو شايفك إنسانة مش كويسة مكنتش طلبت منك الجواز، وعايزك تتأكدي إن مستحيل يجي اليوم اللي أستغل فيه ماضيكي أو أعايرك بيه.

- ولو حصل؟

قالتها بنظرة تحدٍّ، أخافته هو شخصيًا، لكنه حسم:

- ساعتها حقك تطلبي الطلاق وكل واحد يروح لحاله.

أنهى جملته، ثم دنا منها ممسكًا بيدها وهو يهمس:

- طلّعي موضوع الانتحار ده من دماغك وتعالي نبدأ حياة جديدة سوا.

- تقبل تتجوز واحدة مش حاسة ناحيتك بحب؟

- إيه هو معنى الحب من وجهة نظرك؟

- فكرت كتير في مفهوم أو معنى واضح، لكن بعد كل اللي مريت بيه أقدر أقول إن الحب هو الأمان.

- وده مفتقداه معايا؟

- أنا مفتقداه في العموم، والأمان حاجة فطرية لا تكتسب.

- طب وهنخسري إيه لو جربتي؟ هتكسبي إيه من فكرة الانتحار اللي مسيطرة عليكي؟

باغتتها منطقية التساؤل، جلست وراحت تفكر، أي شيء ستخسره أكثر مما حدث! وما جدوى الانتحار؟ وهل كانت تعني بالفعل ما كتبته برسالتها الأخيرة أم كانت مجرد كلمات وليدة يأس وغضب؟

فكرت في صورتها أمام رشدي، إن لم تنفذ تهديدها، خطر ببالها، أنه مؤكد - ومن وقتٍ لآخر- يعيد قراءة الرسالة ويضحك، ثم عادت لتستنكر على نفسها منح قيمة لرأي إنسان كهذا.

رفعت رأسها نحو حسام، رأته يقف متطلعًا إليها كالسجين، الذي ينتظر نطق حكم البراءة..

# (5)

# طارق

في أحد شوارع منطقة شبرا سألنا عن حارة معتصم، حيث تسكن أميرة، أشار أحدهم لكشك صغير يقع على رأسها، صففنا السيارة وترجلنا، حارة بسيطة غير ممهدة، تضج منها أغنية من أغاني المهرجانات، تحوي بقالة صغيرة وقهوة يجلس بها المُنهكون، يسرح بطولها أطفال حفاة، يضربون الكرة بأقدامهم العارية، توقفوا فور إشارة أحدهم إعلانًا بظهور دُخلاء، التمعت عيونهم المطارِدة لنا، وراحوا يتهامسون سرًّا، توغَّلنا أكثر للداخل، لمحنا في آخر الطريق، حلقة لشباب وفتيات، انهمكوا في الرقص والتصفيق، على أنغام تصدر عن سماعات ضخمة تصم الآذان، تظللهم فروع إضاءة ملونة، امتدت بين الشرفات المتقاربة، غمر المكان ضوءٌ أحمر مُبهر، صادرٌ عن ألعاب نارية، أطلقها أحدهم من إحدى الشرفات، تُمسِك هند بيدي، وهي تخطو بحذرٍ فوق نشارة الخشب الملونة، التي تغطي الأرض، مرت أمامنا فتاة ترتدي عباءة سوداء، استوقفتها هند وسألتها عن منزل أميرة، أشارت إلى التجمع آخر الحارة.

- بترقص مع عريسها هناك أهي، النهارده حنتها.

قالتها وانصرفت وتركتنا نتبادل نظرات الدهشة، التي تحولت تدريجيًّا لضحك هيستيري بصوت عالٍ ذاب بين الضجيج، الذي لولاه لاتهمنا المحيطون بالجنون، تقدّمنا أكثر، لنُبصر الفتاة وهي ترقص بفرحة حقيقية غير مصطنعة، وشابّ يُمسك بيديها وقد أغرقه العرق، من رأسه إلى أخمص قدميه، عدوى البهجة انتقلت إلينا تدريجيًّا، فرُحت أهز رأسي، بينما راحت هند تصفق بأناملها وهي تتمايل مع الموسيقى، مرَّ طيفُ رُقية من أمامي، فسرت قشعريرة بأطرافي، انحسرت ابتسامتي تدريجيًّا، بدأ يخنقني الزحام من حولي، وشعرت برغبة في مغادرة المكان، حاولت التحرك لكن أصابني الجمود، شعرت بالأرض تدور من حولي، تصبب العرق من جبيني، ربتت هند على كتفي، فانتشلتني من تلك الدوامة، وبعد أن هدأتْ، سألتني وهي تناولني منديلًا:

- مالك؟

جفّفت عرقي وأنا أقول:

- ولا حاجة، أنا كويس جدًّا.

أمسكت يدها، لم تمانع، لاحت ابتسامة خجِلة زادتها جمالًا، رُحت أراقب العروس، وصدى كلماتها يتردد بعقلي:

«ما عدت أملك من الشجاعة سوى ما يعينني على

الرحيل..»

يحتاج الواحد منا دومًا لانتصارات صغيرة، تقويه على المضي قدمًا، انتصارات تعزّز ثقته بنفسه، تدله على الطريق، تخبره بأن لوجوده معنى وفائدة، وأن ما مضى بصعابه وخذلانه، لم يمر هكذا بلا طائل.

مجمل اليوم كان واحدًا من تلك الانتصارات، بداية من التعرف على رشدي رأس القضية، مرورًا برؤية أميرة بفستانها الأبيض، وصولًا إلى عودة قلبي للخفقان مرة أخرى بعد سنوات ظلَّ حبيس نعش حبه الضائع.

***

تلك الليلة عدت لمنزلي شخصًا آخر، أفكر في رحلة جديدة، ولكنها مختلفة تلك المرة، رحلة أجَّلتها من قبل آلاف المرات، خوفًا من الفشل، لكن جرعة الأمل المحقونة في أوردتي، زادتني حماسًا وتفاؤل، أحكمتُ غلق باب الغرفة، انحنيتُ بجانب سريري، وجررتُ الصندوق الراقد تحته، الذي قضيت سنوات لجمع محتوياته من كل أقاربي ومعارفي، ذكريات أبي وأمي، صور قديمة تجمعهما سويًّا، شرائط «فيديوهات» توثق بعض المناسبات، شرائط كاسيت تحمل أشواقًا متبادلة فيما بينهما، محتويات شاهدتها وسمعتها آلاف المرات، أراجعها للمرة الأخيرة، قبل خوض الرحلة، وكلي أمل في

إنقاذهما، وباستخدام جهاز كاسيت و«فيديو» وماسح ضوئي متصلين بالحاسوب، زوّدت تطبيقي بهم حتى وصلت لنسبة مواءمة لا بأس بها.

استرجعت تاريخ الرحلة وتوقيتها، وأيضًا تفاصيل اليوم من بدايته كما حكت لي جدتي، وقبل بدء الرحلة، رحتُ أفكر في طريقة لتفادي وقوع الحادث، وضعت عدة حلول، أولها، تعطيل السيارة، لكن قد يؤدي ذلك لتفاقم الأزمة أكثر، خاصةً مع تدهور حالة أبي، ثانيهما، الركوب معهم بالسيارة، لكن كيف السبيل لإقناعهم باصطحاب غريب مثلي معهم، ثالثها، دخول المنزل ومحاولة إسعافه، إلا أنه وعلى فرض نجاح محاولة الدخول وإقناعهم بإسعافه، ما زال الأمر شِبه مستحيل، نظرًا لعدم إلمامي بالأمور الطبية، في النهاية، وكّلت أمري لله، على أمل أن أتوصل لفكرة بعد انتقالي إلى هناك.

الآن تظهر أمامي واجهة البرنامج برسالة الترحيب المعتادة، قبل أن يسألني عن كلمة السر، أكتبها، فيطلب مني التقاط صورة شخصية لتأكيد الهوية، ثم الاستجواب المعتاد.

عشوائي أم محدد؟.. محدد.. اختر الشخصية؟ ..فعلت.. التاريخ؟.. مايو عام 1988..التوقيت؟..فكرت لبرهة ثم

اخترت الثالثة عصرًا.. جاري التحميل..

أمدّ يدي لاحتضان الحصان المعدني كما كنت أفعل كل مرة، لكن أتراجع في اللحظة الأخيرة، ما عدت في حاجة لفعل ذلك..

يُطالبني بارتداء النظارة، أُحكم وضعها فوق رأسي، أرح رأسي للخلف، أغوص أكثر في المقعد الوثير وأسترخي مُغمض العينين، عدة ثوانٍ... ثم...

تظلم الدنيا من حولي..

# (6)

***15 مايو عام 1988***

***حي العباسية***

***أمام منزل جدتي..***

أقف في انتظار نزولهم، أبحث عن سيارة أبي، شاهين بيضاء كما رأيتها في إحدى الصور، ها هي تقف بمحاذاة الرصيف على بعد عمارتين من المنزل، استندت عليها عاقدًا كفي أفكر، التوتر عصف بكياني، للدرجة التي لم أعد معها قادرًا على إيقاف ارتعاشة أوصالي، تمتمت ببعض الأدعية، وما تيسر لي من القرآن، أُفكر في حال عودتي من رحلتي خالي الوفاض بعد فشلها لا قدَّر الله، كيف سيكون حالي!، هل يمكن أن يضيع مجهود كل تلك السنين هباءً.

استعذت بالله وأنا أطرد هذا التفكير السلبي الذي من شأنه أن يتسبب في فشلي بالفعل، خاصة وأن تلك الرحلة كشأن كل رحلات الطائف، غير قابلة للإعادة، فلا مجال للفشل هنا، عاد لي الأمل من جديد، حينما فكرت - من باب بث الطمأنينة في قلبي ولفظ القلق- أنه كما نجحت في ابتكاره وتطويره، قد أنجح يومًا في تزويده بخاصية الإعادة.

الشارع مزدحم بالمارة والسيارات، رغم حرارة الجو

المرتفعة بفعل الشمس الحارقة، أتصبب عرقًا، مما زاد من توتري، طال انتظاري وعيناي لا تفارقان باب العمارة، فجأة سمعت صوت صريخ إحداهن، ارتبك الشارع على أثره، أبي يخرج مستندًا على كتف أمي، التي راحت تلّوح بذراعها الحر، صائحة فيمن يعترض طريقهما إلى السيارة، ومن خلفهما خرجت جدتي وهي تمسك بيدي، طفل مرتبك يهرول في اضطراب، يتعثر فيسقط وتسقط من يده لعبته، يلتقطها بخوف، ثم ينهض ليواصل الركض، ساعدته أمي ليركب السيارة، أغلقت خلفه باب السيارة بقوة، ثم دارت حولها وهي تحض جدتي على الإسراع، وبفضل الزحام، تسنّي لي استقلال «تاكسي»، سألني عن الوجهة، أشرت للسيارة وطالبته باتباعها أينما ذهبت، بدا عليه التردد، أغريته بأجرة مضاعفة، فرضخ على الفور.

انفراجة مفاجأة في نهر الطريق، ساعدت أمي على الانطلاق بالسيارة وأنا من خلفها، انتقل توتري للسائق الذي راح يتساءل عن سر ما يحدث.

- والدي تعبان وعايز أحصله على المستشفى.

دبَّ الحماس فيه بعد أن شعر بالمسؤولية تجاه الموقف، دهس دواسة البنزين بكل قوة..

- ربنا يجيب العواقب سليمة ياباشا.

من خلال النافذة، أرى نُسختي المصغرة، يُمسك بلعبته غير مبالٍ بما يحدث، بينما جدتي تربت على كتفه ليهدأ، فأطمئن، وكأنّي أشعر بملمس كفِّها، أمي في الأمام تصيح وتلعن، وقد التصقت يدها بالكلاكس، بينما أبي بجوارها يتلوى من الألم، كادت أن تصدم أحد المارة، الذي شيّعنا بسباب غاضب «حاسبوا يا بهايم».

لم تكترث وواصلت الانطلاق، بدأ الغبي الصغير في مد يده بلعبته أمام وجه أمِّنا، ناديت عليه لأشغله عنها، انتبه لينظر إليَّ شزرًا، عقدت إبهاميّ الاثنين حول بعضهما، مرفرفًا بأصابعي الأخرى على هيئة جناحيّ حمامة، وأنا أخرج له لساني، ضحك أخيرًا ونادى جدته وهو يشير نحوي، فلم تكترث، توقف الطريق مرة أخرى بسبب إشارة مرورية، أسمع أمي تنادي على رجل المرور، يقترب منها، تستجديه، يُدرك الحالة الطارئة، فيشير لها استثناءً بالتحرك، تنطلق السيارة لتطلق عجلاتها صرخات غاضبة، أطالب السائق باللحاق بهم..

- ما أقدرش يا سعادة الباشا..

السيارة تبتعد أكثر، الإشارة ما زالت حمراء، الاضطراب بلغ أقصاه، والأمل يتضاءل، لكن فجأة أرى عن بُعد السيارة وهي تدور لتسلك الاتجاه المعاكس، قادمة نحونا من الجهة الأخرى، اللحاق بهم من خلال «التاكسي» صار مستحيلًا،

أخرجت من جيبي ورقة نقدية، ناولته إياها وهممت بالنزول، فإذا به يجذبني من ذراعي صائحًا:

- إيه دي يا باشا!؟

- مش عايز الباقي.

- باقي إيه يا نصاب يا ابن الكلب، ده إيه اليوم الأسود ده!

قالها صائحًا لأنتبه إلى حجم الكارثة التي على وشك الحدوث، انتبهت إلى أنه لم يكن مُتاحًا في هذا الزمن فئة المئتي جنيه، وبينما نظرات الرجل تتوعدني بعلقة ساخنة، الإشارة تحولت للون الأخضر، وبدأت السيارات في التحرك عدانا، انطلقت أبواقُ الاستهجان من خلفنا، بينما أوقفَ السائق محرك سيارته وانتزع المفتاح تحسُّبًا لأي حركات غدر، قبض على ياقة قميصي مستحلفًا:

- وربنا ما سايبك غير في القسم..

رجل المرور يقترب متجهمًا، وسيارة أمي قادمة نحونا من الجهة المقابلة، فكرت في إعطائه أي ورقة نقدية أخرى، لكن مؤكد أنه فقدَ الثقة في شخصي تمامًا، علاوة على أنه، وبنظرة سريعة على تاريخ طباعتها، سيدرك عدم صلاحيتها، بل وربما سيتفاقم الوضع ليصل إلى القبض عليَّ، وينتهي بي الأمر محبوسًا في قضية تزوير عملات داخل أحد السجون،

عالقًا في عام 1988، انتزعني من وجومي صوت سارينة، التفت عن يميني لأرى المقطورة الخضراء تهم بالخروج من أحد الشوارع الجانبية، بينما سيارة أمي قادمة بسرعة الصاروخ، لكمتُ السائق في وجهه وغادرت السيارة، لأعبر الرصيف الفاصل نحو الاتجاه المعاكس، ألوّح لأمي بالتوقف قبل الاصطدام، لكن يبدو أني تأخرت، لم تدرك السيطرة على المقود، حيث فوجئت بخروج الشاحنة عن يسارها، لتحتضن المقطورة النصف الأمامي من السيارة، الذي انكمش على والديَّ كعلبة سجائر فارغة، وانفجرت نوافير الدماء منهما.

تصلّبت في رعب، تجمّد جسدي وأنا أتساءل، كيف تحملت كطفل صغير معايشة موقف كهذا، الأمر يفوق طاقة استيعابي، خاصة وأني عِشتُه مرتين لا واحدة، توقفت حواسي جميعها عن العمل وكأني أسبح في فضاء يغلفه الصمت، لم تدرك أذناي، صوت تحذير أبواق السيارة القادمة من خلفي، لتصطدم بي، يعود إدراكي مرة أخرى، أشعر بجسدي يحلِّق عاليًا بين صراخ من حولي، رحلة صعود استغرقت أجزاء من الثانية، رأيت فيها حياتي كاملة، أبي، أمي، جدتي، طائفي، حتى هند رأيتها، يقفون جميعًا أمامي، مادين أياديهم نحوي، فاغري الأفواه، ومن خلفهم، ألمح صنمًا لفتاة تقف بلا حراك وبلا ملامح واضحة، لكني أدركت أنها هي... هي بلا روح ولا حياة، ثم...

تبخروا جميعهم فجأة، لأهبط مرتطمًا بالأرض في عنفٍ، ورغم الألم الذي اجتاح كامل جسدي، استجمعت تركيزي، أتطلع إلى وجوه تحدق فيَّ برعب، أدركت بما في أعينهم، المصيبة التي ألمَّت بي، نظرات تُخبرني أن النهاية على وشك التحقق..

ثم.. أنهيت الرحلة..

برأس فائر، أعود إلى موضعي أمام شاشة الحاسوب، في قمة الإعياء، يتصبب جسدي عرقًا، ضلوعي تئن، النيران تجتاح كياني، قلبي يضخ يأسًا، لا دمًا، أشعر أن نهايتي تقترب، ورغم كل ما سبق، لا أملك ذرة تشبُّث بالحياة، لم يتبق لي سوى رغبة أخيرة في تسجيل كل ما حدث، علّه يصل إلى من يهمه أمري.

بصعوبة، فتحت كاميرا الحاسوب، ولبضع ثوانٍ، رُحت أطالع وجهي في الشاشة، وكأني أسأله، عما جنيته بعد كل هذا!، وحينما لم أجد ردًا، ضغطت على زر التسجيل.

- أنا (طارق جبريل)، أو لو شئنا الدقة، أنا الساذج الموهوم...

# الفصل العاشر
# (وربما الأخير)
# (1)
# هند

***بعد أسبوع..***

منذ افترقنا لم تصلني منه أي رسائل، وكلما هممتُ بالاتصال به، تراجعت في اللحظة الأخيرة، انتهت المهمة المشتركة بيننا، فما المبرر للتواصل معه الآن!

فقدت تركيزي في العمل، صرت أراجع هاتفي كل عدة دقائق، رنينه ينفضني فرحًا، حتى لا أجد اسمه، فأعود لشرودي من جديد، نظراته الليلة الأخيرة تبوح بعدة أشياء، رغم أنها يضربها التناقض، احتار أيهم كان يقصد!

أمسكت بهاتفي واتصلت برأفت لأشكره على مساعدته، وقبل أن أنهي المكالمة:

- اشكر لي مستر طارق كتير.

سكتُّ لبرهة، مرت عليّ كدهر كامل، قبل أن يقول بصوت مختنق:

- طارق تعيشي إنتي ياهند.

***

برؤية شوَّشتها الدموع أضغط زر جرس الباب عدة مرات، فلا مجيب، وهاتفي لا يفارق أذني، وأنا أتصل بطارق للمرة الألف، ولا أتلقى سوى رد واحدٍ، «الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا حاول مرة أخرى»، فأحاول مرات أخرى، وأنا أفكر، أن مؤكد ما قاله رأفت مجرد دعابة، لكنها دعابة سخيفة، سوف أطمئن على طارق أولًا، ثم أتصل به لألعنه عليها.

بلغ بي التوتر مبلغه، ونهش القلق قلبي، فرحتُ أنقر بعنف الباب الخشبي، الذي بدا لي وكأنه يرمقني في تشفٍّ، سمعت صوت باب آخر يُفتح من خلفي، لتخرج منه زينب، ما إن رأتني حتى أخرجت من جيبها مفتاحًا، دسته بقلق في الباب لتفتحه، وتهرع للداخل للاطمئنان على الجدة، لحقتُ بها لغرفة النوم، لنجدها مُمدَّدة جاحظة العينين، وقد سقطت يدها بجانبها تقبض على عدة صور، بينما انكفأ صندوق مذهب على وجهه أرضًا، وقد لفظ أحشاءه جميعًا من أشرطة كاسيت قديمة ورسائل وصور ذات أحجام مختلفة، مالت زينب برأسها لتلصق أذنها على صدرها، قبل أن ترفعها وتبدو عليها ملامح الارتياح وهي تتمتم بالحمد، انحنيتُ أجمع ما

تبعثر لأعيده إلى الصندوق مرة أخرى، همست زينب وهي تقول:

- أهي ع الحال ده من يوم موت طارق.

تصلبت وزادت دقات قلبي، وكأني أسمع الخبر لأول مرة، أطرقتُ رأسي في صمت، التقطت عيني من بين الرسائل المبعثرة، رسالة الانتحار، التقطتها بيد مرتعشة، وأثناء انشغال زينب دسستها في حقيبتي، سألتها:

- هو طارق.. مات.. إزاي؟ إيه اللي حصل؟

زفرت نفسًا طويلًا وهي تقول:

- فوجئت بخبط على الباب، فتحت لقيتها حبيبتي ميتة من الرعب، بتقولي الحقيني طارق مابيردش عليا، ندهت البواب ودكتور جارنا، دخلوا كسروا الباب و...كان أمر الله نفذ.

أنهت زينب روايتها، ثم مسحت دموعها وهي تسألني:

- إنتي خطيبته مش كده؟

نظرت إليها طويلًا قبل أن أهز رأسي موافقة:

- شدي حيلك حبيبتي، وخليكي جنبها الله يخليكي، ماتسيبهاش الفترة دي.

استأذنت ثم انصرفت، رحت أراقب الجسد الممدد أمامي، وقد شاخ أكثر من ذي قبل، الصدمة كانت أقوى من أن يتحملها أحد، ترى أي مصير ينتظرها بعده، وهي الآن قد أصبحت وحيدة، بما تحمل الكلمة من معانٍ، مات مَن عاش يحاول إنقاذها والآخرين، نهضتُ أتجول بين الغرف وأنا أتقصَّى خطواته، أسأل كل قطعة عما كان يفعل، كيف كان يجلس، وأي المقاعد كان يُفضل، أنظر إلى «الكاميرات»، فأراها تراقبني مشفقة في صمت.

أمام باب غرفته استجمعت طاقتي، مغمضة العينين سحبتُ نفسًا طويلًا، ثم مددت يدي لأدير مقبض الباب وأفتحه، وقفت للحظاتٍ قبل أن أخطو بقدمي للداخل، أضأت الأنوار لأجد كل شيء كما كان، جلست على مكتبه أطالع انعكاس وجهي في الشاشة السوداء، احتضنت الفأرة حيث موضع أنامله، تحسست لوحة المفاتيح التي غطتها الأتربة، بادلت الحصان المعدني النظرات، غصتُ أكثر في مقعده، وشعرت به يحتضني، ارتديت نظارته ورحنا نبكي سويًا، ثم رن جرس الباب.

خلعت عن رأسي النظارة، أطفأت أنوار الغرفة وأغلقتها مرة أخرى، توجهت لباب الشقة، فتحته لأجدها واقفة أمامي، رقية كما رأيتها في الصورة، لكن اختفت ابتسامتها، وحلت

الكآبة محلها، وبعد أن قدمت لي نفسها دعوتها للدخول، جلسنا سويًّا في الصالون، سألتها عما تشرب، رفضت في البداية، وبعد إلحاح طلبت الماء فقط، أحضرت كوبًا من الماء وناولته إياها، ارتشفت منه القليل لتضعه وتشكرني، سألت عن الجدة، أجبتها بأنها مُتعبة وغير قادرة على استقبال أحد، هزَّت رأسها في تفهُّم، سألتها كيف عرفت، قالت إنها قرأت الخبر الصادم الذي كتبه أحد أصدقائه على صفحته، إذًا هي أيضًا كانت تقتفي أخباره كما كان يفعل، أي حياة تلك! لماذا نهرس سنوات العمر تحت أقدام ترددنا، ماذا كانت ستخسر، لو فقط استمعت إليه! ولو لمرة أخيرة، وماذا كنت سأخسر لو صارحته بحبي له! قطع أفكاري صوتها وهي تتمتم محوقلة قبل أن:

- ربنا يرحمه ويصبّر طنط، هي اللي مربياه وكان بيحبها أوي.. ماتعرفتش على حضرتك!

- أنا جارتهم.

أومأت برأسها مرحِّبة، وهمّت بقول شيء ما لولا جرس الباب، نظرت في ساعة يدي لأجد عقاربها تزحف نحو العاشرة مساءً، وانتبهت إلى أنني أطلتُ المكوث، توجهت للباب وأنا أتساءل عن كنه القادم في ذلك التوقيت، فتحته لأجد زينب بابتسامة ودودة تحمل صينية مستديرة، دخلت

لتضعها فوق السفرة في هدوء، حيّت رقية عن بعد، ثم عادت لي، حيث لازلت واقفة بجانب الباب، مالت لتقترب من أذني وهي تهمس:

- أنا حضّرت فطار طنط الصبح وعملت حسابك معاها، معلش نازلة للشغل بكرة بدري ووقتي ضيق، حاولي تخليها تاكل الله يخليكي.

أنهت جملتها وقبَّلتني وانصرفت، أغلقتُ الباب وعدت لرُقية التي بادرتني بسؤالها عن طارق، وكيف حدث ما حدث، حكيت لها ملابسات وفاته، هزَّت رأسها في محاولة للاستيعاب ثم تمتمت:

- الله يرحمه، كان إنسان جميل.

ابتسمتُ في أسى وفشلتُ في منع نفسي من سؤالها:

- ولما هو كان إنسان جميل، اتخليتي عنه ليه!

حدّجتني في توتر من سؤالي غير المتوقع، زاغت عيناها وكأنها تسترجع الذكرى، قالت وهي تهمس:

- ماكانش بمزاجي، وده اللي عمر طارق ما قدِر يفهمه.

ثم رمقتني وهي تستطرد:

- بس واضح إنه كان بيعزّك أوي.

تجاهلت قولها الأخير وأنا أسألها:

- طب احكيلي أنا يمكن أقدر أفهمك.

سحبت نفسًا طويلًا قبل أن تزفره، وتزفر معه كل شيء..

# (2)

# رُقية

في إحدى المرات كنا نجلس بحديقة الجامعة، يمسك طارق بكشكول المحاضرات ويخط شيئًا ما كعادته، سألته فجأة:

- إزاي الواحد يضمن أن أمنيته تتحقق، حتى لو ربنا مقدر حاجة تانية؟

استنكر سؤالي وكاد أن يتهمني بالكفر، فبادرته موضحة أني لم أقصد ذلك، وأني قرأت أن الدعاء يغير القدر، فكّر برهة قبل أن يجيب:

- لو في حاجة اتغيرت، فلأنها كانت إرادة ربنا من الأول.

سكت قليلًا ثم استطرد:

- بس السؤال الأهم، إنتي عايزة ربنا يحققلك كل اللي تتمنيه، ولا الخير من اللي تتمنيه؟

لم أدرك حينها مقصده، ضربت كتفه وأنا أتهمه بالتفلسف:

- بطل فذلكة، أنا اللي يهمني إني أبقى ليك باقي عمري.

وضع الكشكول جانبًا، تسللت ملامح القلق إلى قسمات

وجهه النحيل، قبل أن يقول:

- ليه دايمًا بتقولي أبقى ليك، وكأن في حد تاني بيحاول ياخدك مني؟

عاد للمناورة من جديد، لكنه كان محقًا تلك المرة، أطرقت في حزن وقررت مصارحته بأن هناك بالفعل عرضًا قائمًا، من أحد أصدقاء والدي لتزويجي ابنه، ولم أكن أرغب في إخباره، حتى لا يغضب، خاصة وأن العريس يُعَد بمقاييس الزواج، لُقطة، ولا عائق أمام إتمام الأمر، سوى الامتحانات، التي كانت على وشك البدء.

وأمام كلامي، صمت ولم يعقب، وفي مساء ذلك اليوم، هاتفني يطلب رقم والدي، قرر أن ينتهز فرصة تواجده بمصر، ويتصل به ليقدم له نفسه، ويحدد موعد لمقابلته، ورغم تحذيراتي وافتراض أسوأ السيناريوهات التي توقعت حدوثها، أصرّ على تنفيذ ما برأسه، قائلًا إن كان في التعجيل بعض الضرر، ففي التأجيل كله، وكما توقعت، لم تستغرق المكالمة سوى دقائق معدودة، لم يلزم أبي، الكثير من الجهد ليدرك مغزى طلب طارق، المرفوض مقدمًا بالطبع.

ليلتها، ومن بين فرجة باب غرفتي، أبصرت والدي قادمًا في غضب، ضرب الباب وهو يسأل عن كنه طارق هذا، وما الأمر الخطير الذي يطلب مقابلتي من أجله!، قرأ في عينيّ

الإجابات التي كان يخشاها لكل تساؤلاته، ليُعقّب بصفعة على وجهي، ووعيد بإعادة تربيتي من جديد، وأنه الوحيد على سطح الأرض، الذي يملك بين يده أمر اختيار شريك حياتي، فهو دائمًا وأبدًا، الأدرى بمصلحتي، عشت فترة لا بأس بها من التعنيف والتهديد، الذي صاحبه حبسٌ بالمنزل، بل وتجريدي من هاتفي، وقطع طرق التواصل جميعها، بنظرات اللوم التي حاصرني بها كلما التقت أعيننا، وصياحه المستنكر لتفكير ابنة (شاكر المرشدي) في الارتباط بـ (عيل) لا يزال يدرس، بينما تتخلي عمن هو جاهز من مجاميعه على حد قوله، وصولًا لنوبة القلب التي أصابته بإحدى المرات جراء معاندتي له والتلميح بهروبي من المنزل، اجتمعوا لتشكيل مطرقة، هوت فوق آخر صخرة للتمسك بطارق، الذي انقطعت أخباره لفصل دراسي كامل.

أنهيت امتحانات آخر العام تحت حراسة مشددة، وفي آخر يوم نزعت ورقة صغيرة من ملزمة الإجابة، كتبتُ بها: «يبدو أنّ الله قد اختار»، وأرسلتها إليه مع إحدى زميلاتي، وفي صباح اليوم التالي، كنت على متن الطائرة المتجهة إلى تركيا، لتتم إجراءات الزواج سريعًا، وتنقطع أخباره عني تمامًا، سوى من محاولة وحيدة بائسة منه، بعد عدة سنوات، واجهتها بحزم، فبعد أن صرت أمًا، أحكَمَ القدر قبضته حول رقبتي، وما عاد لحديثنا جدوى.

# (3)

# هند

أنهت رُقية كلامها دامعة ثم سألتني:

- تفتكري كان ممكن أعمل إيه؟

لم أجد ردًا، فأنا تحديدًا آخر من يُسأل هذا السؤال، جففت دموعها وهمّت بالرحيل، استوقفتها، دخلتُ غرفة طارق ثم عدتُ، ناولتها الحصان الذهبي، الذي ما إن رأته حتى انهمرت بالبكاء مرة أخرى، ارتمت في صدري وهمست بغصة:

- الله يرحمه.. الله يرحمه..

ثم رحلت.. مع صوت غلق الباب انتفض قلبي من مكانه، ما عاد يحتمل كل تلك المآسي، أطلقتُ لدموعي المكبوتة العنان، وبتثاقل اتجهت لغرفة الجدة، وقفت أمامها أتأمل جسدها الهامد، دنوت لأجلس بجانبها، التقطتُ يدها ولثمتها ليبللها دمعي، أرحتها بجانبها مرة أخرى، سقطت من جيبي الرسالة، فردتها وأعدت قراءة محتواها، الذي حفظته عن ظهر قلب، لوحت بالورقة أمام الوجه الساكن وأنا أهمس:

- مين صاحب الرسالة دي؟

لثوانٍ لم تبدو منها أي استجابة، قبل أن ألحظ رعشة

خفيفة بسبابتها اليمنى، تحاول تحريك كفها، ابتلعتُ ريقي وأنا أمسح دموعي المنهمرة، أعيد عليها السؤال مرة أخرى، أخيرًا نجحت في رفع يدها وهي تشير نحو الصندوق، قبل أن تسقط بجانبها مرة أخرى، فتحته لأنثر محتوياته كلها مرة أخرى، هززته لأتأكد من إفراغه تمامًا، إلا أني شعرت باهتزاز شيءٍ ما محشور ببطانته، تحسست بيدي لأجد سوستة، سحبتها برفق فلم تتحرك، يبدو أنها لم تُفتح منذ فترة كبيرة، تعنفت لأفتحها أكثر حتى تمزقت، ليظهر من تحتها شريط كاسيت قديم، التقطه لأجد مكتوبًا عليه «جلسة رقم 7 للسيدة فاطمة عكاشة، يوم الإثنين 12 ديسمبر 1988»

جررت كرسيًا بجانب الكومودينو، الراقد فوقه جهاز كاسيت قديم، دسست الشريط في مجرى بابه، قبل أن أغلقه، أرجعته من البداية، ثم ضغطت زر التشغيل..

ثوانٍ من الصمت قبل أن أسمع صوت أحدهم يكرر المكتوب على الشريط من الخارج:

«جلسة رقم 7 للسيدة فاطمة عكاشة، يوم الاثنين 12 ديسمبر 1988، الساعة السابعة والنصف مساءً»

- أخبار الدوا إيه يامدام فاطمة؟

صوت رجل يبدو أنه الطبيب المعالج، تبعه ثوانٍ من

الصمت، قبل أن يجيبه صوتها:

- أحسن كتير يا دكتور، مزاجي اتحسن كتير عن الأول.

- طيب، النهارده محتاج منك تحكيلي بالتفصيل كل اللي حصل يوم الحادث.

في الخلفية أسمع صوت نقر باب يأتي من بعيد، تتجاهله (فاطمة) وتبدأ في سرد الأحداث.

# (4)

# فاطمة

ارتبكت الأمور فجأة، حينما داهمته نوبة مرضه أثناء تناول طعام الغداء، فزعتُ لأرتدي ملابسي وألملم أغراضي وألحق بهم، جلستُ على أريكة السيارة بجانب طارق، الذي أشفقت عليه من معايشة موقف صعب كهذا، وأيضًا على ابنتي، لتولي قيادة السيارة، رغم حداثة عهدها بها، فانشطر قلقي ما بين خوفي على حفيدي، وتوتري من قيادة أمه بتلك السرعة الجنونية.

سلكنا طريقنا المزدحم آنذاك تجاه أقرب مستشفى، وعيناي لا تفارقان الطريق، أدعو بسلامة العواقب، أراها بالكاد تتفادى سيارات وأشخاصًا، تسبُ هذا وتشكر ذاك، تعطلنا إشارة، فتتوسل لرجل الشرطة، يسمح لها بالتحرك، فتدهس دواسة الوقود، تصرخ الإطارات اعتراضًا، أتكور أكثر محتضنة المسكين الصغير، غابت عيناي عن الطريق لجزء من الثانية، لم أدرك ما حدث، لكن مر شاب كالبرق من أمامنا، مالت السيارة في عنف تفاديًا، لتنحرف عن مسارها تمامًا، أطلقتُ صرخة تنبيه دون إرادة مني: «حاسبي»..

لكن..

ارتطمت المركبة بمقطورة ضخمة، ثوانٍ من الصمت مرت علينا جميعًا، قبل أن أستعيد إدراكي مرة أخرى، أفقت من الصدمة لأجد الدماء تُغرق جسديهما وتخفي ملامحهما تمامًا، تصاعد دخانٌ أسود كثيف من مقدمة السيارة التي تهشمت تمامًا، تعاون المارة في تحطيم بابي، لإخراجي أنا وطارق الذي غاب عن الوعي للحظات، وعلى الأرض، لم تحملني قدماي، فقدتُ ما تبقى من توازني، جلستُ على أقرب رصيف، ناولني أحدهم طارق لأضمه إلى صدري، هرج ومرج من حولي، زاده وصول سيارات المطافي والإسعاف، نظرت عن يساري لأجد الشاب الذي اعترض طريقنا مسجى على الأرض لا يقوى على الحراك، ثم لاحت منه نظرة أخيرة تجاهي، تساءلت عن السر الذي جعله يُقدم على اعتراض سيارتنا بتلك الطريقة، تعاون رجال الإسعاف على حمله، وأثناء نقله إلى العربة، سقطت من جيبه رسالة، أطاح بها الهواء لتستقر تحت قدمي، التقطتها وفتحتها، قرأتها، وجدتها رسالة انتحار، وساقها القدر لتصلني، قررت الاحتفاظ بها، حتى لا يتضاعف حزن أبويه عليه، وأنا أدعو لصاحبها بالرحمة حيًا كان أم ميتًا.

- وبعدين؟

عاد صوت الطبيب ليسألها، وقبل أن تجيبه قاطعها من

جديد صوت طرق الباب، لكن امتزج تلك المرة بصوت طفل يبكي صائحًا:

- ماتسبينيش لوحدي يا نانا.

وساد الصمت...

# (5)

***هند والمشهد الأخير..***

رحتُ أجوب غرف الشقة كلها مرة أخرى ذهابًا وإيابًا، علّني أُخمد نيران كياني المشتعلة، اعتصرتُ براحتي قلبي الذي كاد أن يقفز من بين ضلوعي مغادرًا، اهتزت الأرض من تحتي، تهاوت قدماي، استندت على السفرة، سحبت كرسيًا، جلست لألتقط أنفاسي، صوت طارق لا يغادر رأسي، «ماتسبينيش لوحدي»، وكأنها استغاثة أرسلها لي عبر السنوات يطالبني بالتدخل، فكرت، ماذا لو!

ماذا لو حاولت استعمال أداته ذاتها في محاولة لتصحيح مسار مرة أخرى!

أم ستسفر المحاولة إلى ما هو أسوأ من ذلك؟ لكن ما هو أسوأ مما أنا فيه الآن!

وبعد تفكير راقت لي الفكرة، لكن شعرت بمخالب إغماءة تزحف فوق رأسي، نظرت لصينية الطعام التي أمامي، وبالكاد ابتلعت ريقي، وأنا أمد يدي نحوها، حيث بدت لي، وجبة إفطار لكن تصلح للعشاء..

**تمت**